

ساره البدرى

رواية

النصف

الساكنى

الرواق للنشر والتوزيع

النّصف الحَيّ

رواية

ساره البدرى

الرواق للنشر والتوزيع

النّصف الحَيّ

ساره البدرى

الطبعة الأولى ---- يناير 2022

الإخراج الفني: ضياء فريد

المراجعة اللغوية: إسلام منتصر

رقم الإيداع: 2021/30155


الترقيم الدولي: 1-134-824-977-978


جميع حقوق الطبع محفوظة

186 عمارات امتداد رمسيس 2 - أمام أرض المعارض - مدينة نصر

هاتف: +20220812006

rewaq2011@gmail.com

 alrewaqpublishing

 alrewaqpublishing

www.alrewaqpublishing.com



للنشر والتوزيع

(١)

ما هي الكراهية؟

أن تكره شخصا يعني أن تتمنى لو تختفي من عالمه؟ أم أن يختفي هو من عالمك ويتركه لك على الأقل؟ أم أنك ستكون قادرا على ترك ما يفوق عالمك من أجل نيل البعد عنه والتحرر من كراهيتك تلك، والتي تكتشف أنها لا تؤذيه وحده، بل يمكن ألا تؤذيه أصلا! لكنها حتما تؤذيك أنت. مزيج من المرارة والحقد والغضب يعتريك حينما تكره شخصا.

دوما ما يتساءل الناس عن معنى الحب، لكنهم لا يتساءلون عن معنى الكراهية، رغم أنها مخيفة، قاسية بشكل أفظع من الحب، إنها هدامة! الحب طاقة وإن كان ضعفا، أما الكراهية فحجر ثقيل فوق العنق، يفتت الجلد على مهل، ثم اللحم، ثم العظم، دون أن تدري.

ربما لذلك حين غفت فائن حمامة في القطار، بعد مواجهة أمام الزوج زكي رستم تنازلت فيها عن كبريائها وكرامتها، في محاولة مسكينة لإقناعه أن ينزل لمستواها الفكري المتواضع، ويحاول أن يجد طريقا للتفاهم بينهما لكنه يرفض؛ لذلك حين غفت في القطار، بكت وهي نائمة.

نهر الحب

بعد خروج الموظفين بخمس دقائق وكالعادة، تتحرك تاركة مكتبها في المبنى القديم لوحدة الصحة متجهة نحو سيارتها الـ«Verna» ذات اللون الأحمر الداكن. عذمت على الذهاب من الطريق الأطول كي تزيد المسافة قبل الوصول للبيت. كانت «رفاء» على الهاتف تخاطب صديقتها «داليا»، اعتادت مؤخرا أن تشد خصلة من تحت حجابها خلف الأذن، وهي تستمع إلى التقرير بدم بارد.

- داليا، انجزي، أنا ببلغك مش باخد إذنك، وده بس عشان لو حصل أي حاجة ومعتز كلمك تكوني مستعدة.
- أنا مش مرتاحة يا رفاء، قلبتك دي خضاني!
- فيه إيه يا داليا؟ وبعدين مين اللي بيتكلم!

ضحكت داليا - ما هو عشان كده بتكلم، إنتي عارفة، طول عمري the bad girl.

- لا يا حُبي، كلنا فينا حاجة bad، باي.

أغلقت الخط وتأمّلت السيارات التي تصطف أمامها، تصارعت بداخلها أشياء، تنهدت، لكن ما النهاية؟ رفعت حاجبها وذقنها بتحدّ قائلة لنفسها: «وليكن!»، فتحت صفحة المحادثة من هاتفها، كتبت باختصار تطمئن إن كان موعدهما مؤكداً، واطمأنت من رده الهادئ المكون من كلمة واحدة: «تمام». اختارت مكاناً غير بعيد عن مكان عمله، وبعيد كل البعد عن مكان عملها..

حين تخرجت في كلية الصيدلة تخيلت أنه بالإمكان العمل في الوزارة، وزارة الصحة والسكان (1)، اكتشفت أن الإدارة المركزية للصيادلة التابعة لإدارة الصحة هي نقطة في بحر لا محدود، إسعاف، تأمين صحي، مديريات الصحة الغفيرة ومن تحتها مستشفيات ووحدات صحية لا حصر لها منتشرة في محافظات الجمهورية، قطاعات الطب البشري، والبيطري، والصيدلي تعمل جميعاً تحت قبة الوزارة، فأى وزارة تلك التي تحلم بالعمل في مبنائها؟

بعد المغرب وفي أثناء انتظاره في هذا الكافيه البعيد، عجبت من نفسها، إنه لا يلفت النظر، ولو أنها رأته من سنتين لما شعرت بوجوده من الأساس. جاء «خالد» مرتبكا، جلس بنفس الارتباك، وشعرت هنا ببعض الظلم له، نحافته الشديدة لم تستطع محو الجاذب الغريب النابع -في رأيها- من التضاد المبهر بين سواد شعره وعينييه، وبياضه الهش. قالت في نفسها، هذا رجل لا ينام إلا قليلاً. طلبت لهما منعاً لحرجه، وفي انتظار كعكة الميلفيه والنسكافيه قال بتردد:

- انتي حلوة قوي النهارده -ضحكت بصوت عالٍ- أكيد انتي حلوة كل يوم، بس النهارده زيادة شوية.
- يا سيدي ربنا يجبر بخاطرك، بس خلاص احنا كبرنا على الكلام ده.

يعرفه، هذا الوهج في عينيها، وهج مشبع بالأسى. قال بصوته الخفيض:

- كبرنا إيه؟ ده الشغل كله بعد الثلاثين!

ابتسمت بتردد، لم تعرف من أين يأتي بهذا الكلام الذي دوما ما يبدو في محله، احمرّت أذنا خالد. سألته عن أحوال ولديه، كانا الشخصين الوحيدين اللذين تأتي غرفة الحوار عادة بسيرتهما، أخ أصغر يطبع الأكبر المتنمر بكل استسلام. بدأت في شرح نظرية الغيرة التي سمعت عنها كثيراً بين الإخوة دون أن تجربها، فهي وحيدة، لكن بناتها الثلاث علمنها معنى الغيرة جيداً. يُبدي دهشته الخالصة مُجدداً:

- ما يبانش عليكِ خالص إنك أم.

إنه يعجبها. شكرته دون النظر إليه كي لا يرتبك، أو ربما كي لا تُظهر له تأثير كلامه هذا. تشعر أنها تستمد أنوثتها من مدى نظرته لها كأنثى. راحا يتحدثان عن

الإمتحانات التي اقترب موعدها، ولم تكن تخبره طبعاً عن أزمته الأولى، فأين ستذاكر؟ المذاكرة في العمل تسعفها لكنها لا تكفيها، و«معتز» يجب.. يجب ألا يعرف أبداً أنها انتسبت للمعهد العالي للسينما.

لم يكف عن الحديث والضحك. حين جاء وقت الدفع، ودون كلل حاول بمثابرة أن يدفع هو، لكنها أقوى منه! تقول بإصرار إنه حين يطلب هو اللقاء بها ستتركه يدفع.

حكى له كم تتمنى أن تشتغل في نقد السينما بعد الانتهاء من الدراسة، الخطة أن تبدأ بالنشر على صفحاتها، رغم أن الأمل في نجاح تلك الخطة ضئيل؛ لأن أحداً من أصدقائها أو أقاربها لا يهتم بالسينما، الجرائد والمجلات الإلكترونية بكل تأكيد لن تقبل مبتدئة مثلها.

• مين قال؟ انتي بس تروحي لهم بالأحمر الملعلط، وتقابلي رئيس التحرير، وهاتشوفي.. إما اداكي كرسيه؟

ضحكت بصوت عالٍ داخل سيارتها مرة أخرى حينما أعادت تذكر هذا القول، يشعرها ببهجة عارمة هذا الخالد، وكانت ترى أن ما يلمح له لا يمس الواقع ولا من بعيد، فما تعرفه جيداً أنها ليست من هؤلاء النسوة اللواتي يثبتن الرجل بمجرد الظهور. لكن شعوراً بالاكتماء كان يغمرها؛ أنه يراها كذلك.

(تركتها وأنا أفكر، أنت لا تعرف كيف تبدو رنة صوتها عالي الأثوثة، وابتسامتها الحية التي استقبلتني بها. أحب أن أبقى جالساً أسترجع كلماتها، خديها المكورين فوق الشفاه الحمراء، وسمارها الملحوظ والذي لم ينقص منها ذرة في رأيي، رغم الكعوب شديدة العلو التي ترتديها، ما زالت أقصر مني بشكل ما، وهذا شعور يرضيني، لا أدري لماذا؟

بدأ الأمر بشكل عادي، أحتاج لقتل الوقت بين الحين والحين، قتله مع شريك! لكنني أصبحت أحب أحاديثنا على الفيس بوك؛ ربما بحكم العادة. بصراحة أحب التحاور خلاله أكثر من لقائي بها، لا أعرف، يكون هناك حاجز حينما تكون أمامي بشحمها ولحمها، أما على الشاشة، فلا حواجز.

دخلت في هذا اليوم ٢٦ مارس ٢٠١٤، من أشهر عدة، تتكلم عن نقدي لفيلم (فتاة المصنع)، وقالت ما أثار إعجابي وغيظي معاً؛ أن النهاية ليست مفتوحة كما يظهر للمتفرج العادي، بل محكمة الإغلاق. تعرف كيف يثيرهما شخص فيك، الإعجاب والغيظ، كلا كلا، ليس لأنها امرأة عدلت قولي، المرأة كائن ذكي، بديع، بالإضافة إلى

أن وجوده فوق الأرض ضرورة حتمية داخل هذا العالم المقرف، أظنك تعرف هذا أكثر مني!).

حينما كان خالد ينهي كتابة الجملة السابقة ويضغط على زر الحفظ دخل الصبي الكبير محتجًا، فقد قال أبوه أنه سيغيب لدقائق، لكنه غاب لساعات! إنه لم يجالسهم اليوم، تنهد خالد:

- ما قعدتش معاكم؟ أومال أنا من ساعة ما رجعت من الشغل بعمل إيه؟ يا دوب غبت نص ساعة.
- اتفضل قوم وتعالى، بناكل جوافة.

حفظ الملف بالتاريخ، وأغلق الحاسوب المحمول ذا الشاشة المشروخة، وخرج طائعا.

كانت رفاء تقود سيارتها حينما نظرت للهاتف، معتر يرن لها من جديد، تأففت، إنها المرة الثالثة ويجب أن ترد، أجابته قائلة إنها في الطريق؛ اعتذر السائق اليوم بعد ما قام بتوصيل البنات بسيارته الصغيرة المتهاكة، وعليها أن تقلهن عودة للبيت، قالت كاذبة: «ماما بترنلي، هاكلمها وارجع لك». ورمت الهاتف على المقعد المجاور تزفر الخلاص. وصلت الحضانة التي تضم صغيرتها الثالثة «جنى»، ثم اتجهت إلى المدرسة، دخلت البنتان السيارة تتشاكسان كالمعتاد، وكما يحدث مؤخرا أسكتتهما بصيحة: «مش عاوزة أسمع نفس!». وصلت المنزل، دخلت رأسا للمطبخ كي تسخن الغداء وهي تنادي بصوت عالٍ للكبيرتين مكررة أن عليهما تغيير ملابسهما فوراً. حينما كان كل شيء جاهز، دخلت أخيراً تتخلص من كعبها المتعب، وتبدل ثيابها سريعاً. على المائدة وكالمعتاد لم تكف عن تصحيح الأخطاء للوسطى المتنمرة «فرح»، عشرة أعوام وتغالبها بشكل مستمر يتعب أعصابها! الكبيرة «فريدة» مراهقة، ترى في سكوتها وتباعدها شخصيتها، والحقيقة أن هذا هو ما يناسب رفاء تماماً هذه الأيام، وبصراحة هي سهلة المراس، أما الصغرى جنى فسنها الرائع -ثلاث سنوات- هو ما يهون حملها، تحكي عن يشاكسها في الحضانة، وعن أغرق نفسه لأنه صغير، تحكي وتحكي بحروفها المكسرة، وكلماتها القليلة المأخوذة من أختيها غالباً، ثم بدأ الجزء الثاني، تنظيف المائدة وتجهيز الواجبات المدرسية اليومية. على مدار ثلاث ساعات بين شد وجذب اقتربت النهاية، وهنا سمعت صوت الباب يُفتح، كانت هذه إشارة كي تقوم من مكانها وتبدأ في تسخين الأكل من جديد لزوجها. تمت أن تظل الصغيرة هادئة أمام التلفاز حتى تنتهي الكبيرتان من الواجبات، ها هي ككل يوم تترك كل شيء وتقفز على صوت والدها لترد عليه: «أليكو سلام».

جلس الأربعة على المائدة، البنتان في أقصى اليمين وحولهما كتبهما، الأم فوق حجرها الصغيرة في أقصى اليسار، والأب يأكل وهو يسألها عن يومهما، وطبعا فرح تجيب باعتراضاتها التي لا تنتهي على الناس والعالم. تفتح جنى فمها بين الحين والحين تلتقط حبات الطماطم الصغيرة من شوكة أمها، يسألها معتز بشكل متكرر: مالك؟

وتجيب بابتسامة مصطنعة:

أبدا.

زف لها خبر وصول سيارته الجديدة للميناء، ولم يبق سوى إجراءات التوثيق والتقسيم المعروفة. «فعلا؟»، قالت مبتسمة، فتساءل لماذا هي ليست سعيدة؟ في لحظات تحولت لكتلة نيران:

- مش لازم يعني أقوم أنط من الفرحة عشان تنبسط يا معتز!
- انتي مافيش حاجة ترضيكي أبدا؟
- أه أنا كده اتصدق؟ وهافضل كده! إيه؟ فاجئتك؟
- ماما -نظر كلاهما لفرح - هو ينفع تبطلوا خناق على الغدا؟

تنهد الأب: «دي تبقى معجزة يا بنتي». أما هي فصاحت:

- مش عاوزة طولة لسان! خلصي عشان تنامي.

في نفس الليلة وأمام الصمت الرهيب المحيط بهما وبشاشة التلفاز ذي الصوت الخفيض، بدأ معتز يتغافى، وكانت مستغرقة في مذاكرتها من التابلت. سمعته فجأة يسأل عن سر زيارتها لداليا، هل هناك مشكلة تستدعي نزولها في منتصف الأسبوع وترك البنات؟ احتجت بعصبية لأنها مجبرة على تقديم أدلة مأساوية كي تلتقي فجأة بصديقتها!

- مالك يا رفاء مولعة زي البوتاجاز كده ليه؟
- أنا مولعة، ابعده عني بقى لتتحرق!
- رفاء رفاء، اعلمي اللي انتي عوزاه! أنا داخل أنام.

وقفت رفاء أمام المرأة تتأمل قدها الذي ما زال متناسقا، عكفت على شرب الماء الدافئ وتحمل الغثيان كل صباح لثلاثة أشهر كي تتخلص من البطن، الحجاب الجديد الـ Spanish يزيد لها صغرا وحلاوة! اعترض معتز كثيرا، عاب عليه مرة، وعليها به مرة، ثم تحول الحوار لمشاجرة عرف منها أنها لن ترجع في رأيها مهما حدث! ارتضى أنها لا ترتديه في زيارتهما لوالديه وانتهى الأمر.

بين الحين والآخر تحب الرجوع للتواريخ الأولى وإعادة قراءة حوار دار بينها وبين خالد في بداية التعارف، بعد حوار حول فيلم (أم العروسة) كتب لها:

- الستات دول مساكين، تحمل وتخلف وترضع، وجسمها يبوظ، وما بتسمعش من اللي حوالها غير لازم وإوعي وخدي بالك، كلها حاجات تخص العيال، ما حدش واخذ باله إنها رغم الأمومة، مخضوضة من اللي حصلها ومنزعجة كمان، دي في الأول أنثى.
- إنت متجوز؟

كتبت رفاء ذلك بعد وقت ظلت تنظر فيه للشاشة، فلم تصدق أن من يكتب هذه الكلمات رجل! رجل «شرقي»، تمهل أيضا في الإجابة، سألتها ما لزوم هذه السيرة، ولم تفهم ما السبب بالضبط في أنها تزعجه. كتبت له أنها لم تلاحظ دبلة في إصبهه يوم التقيا في المعهد، فصرح لها أنه يكره ارتداء أي شيء في يديه، ثم صرح لها بشيء آخر، خاف من أن يصارحها به من قبل:

- أنا كنت فاكرك عانس!

أرسلت له وجها مندهشا، بينما أرسل وجها ضاحكا يتعرق. سألت وقد بدأت ملامحها تكشر -دون أن يرى- «لماذا؟» كتبتها وهي تتمزق، داهمها خاطر واحد صرخ في أذنها، خاطر بصوته يقول «إزاي متجوزة وإزاي بتكلميني؟»، رأتها يكتب: كذا سبب، ما اتعودتش مثلا على ست متجوزة ومخلفة يكون قوامها مش مفشك، ما اتعودتش تكون ست شيك وبتاخذ بالها من نفسها، مدام هناء جارتنا اللي في التامن نزلت مرة تاخذ حاجة مننا، لاقيت حلاوة طحينية على صوابعها، اعتذرت وهي بتقول نسيت تغسل إيديها بعد ما عملت سندويتشات الولاد! لكن هاقولك إيه، مسكينة جديدة في طابور المسكينات في بلدنا.

كيف ذلك؟ كيف يعرف ما تحب أن تسمعه فيسمعها إياه؟ كيف يعرف ما تحتاج أن يخبرها به أي أحد ويفعل! هكذا بسرعة بديهة معجزة بالنسبة لها.

لكنه كتب أن هناك سببا آخر، فمنذ أن بدأ التحاور الشخصي، وحتى حين التقيا في معهد السينما لم تأت بسيرة أسرتها أبدا! لم تكتب ما فكرت به، لم تكتب أنها ببساطة أحببت أن يكون هناك عالم خاص بها بعيدا عن عالمها الموجود بالفعل؛ لأنه خاص بها وحدها، هي النجمة في الأحداث، نجمة من جديد، بعد أن انطفأت نجوميتها تماما مع

السنوات، لم تفهم لماذا تريد أن تصبح نجمة؟ تفهم جيدا أنها تريد، الكل يريد. في القاع كان هناك سبب آخر يبدو مدهشا في تناقضه، عدم ذكرها شيء عن معتز لأنها لم تحب أن تذكره في غيابه بسوء، أو تكشفه أمام غريب، بدت مفارقة هزلية!

في أحد سفراته لمرسى مطروح التقى خالد بصديقه القديم «هاشم». هذا الصديق الذي كان يتزعم الفصل بالحب والخوف! مزيج غريب لم يفهمه خالد أبدا، كيف تكون سطوته مخيفة مزعجة تصل لحد الكراهية، لكنك لا تكرهه، أنت تحب أن تشاهده وهو يفرض سلطته، وتتفرج على حركاته المتقنة وردوده المسددة للمدرسين يقتص بها لنفسه، أو لك، أو دون أي سبب. جلسا في القهوة ينثران الذكريات ويضحكان، صحيح أن دخوله لكلية الحقوق كسره بشكل ما، لكنه مبتهج كما كان دائما، ولمعة عينيه لم تخب. حين جاءت سيرة الزواج كان لهاشم مبدأ مقدس يؤمن به كما كان له دائما مبدأ نحو كل شيء، وهو أن وجود علاقة خارج إطار الزواج أمر حتمي لا بد منه، أمر مقدر قبل أن نولد، آدم طبيعته -معاذ الله- لا تخفى على خالقها، وبما أننا دولة عالم ثالث ليس فيها للرجل العادي القدرة على فتح بيتين، فالحل بالتأكيد في وجود محرقات بسيطة تعينه على العيش ويسامح فيها الله بكل تأكيد، فليست هناك نية مسبقة كي لا يسامحه، إنها زلة حتمية مغفورة؛ لأنها ليست عن عمد أو حبا في الخطايا. ضحك خالد بصوت عال: إنها كباثر يا صديقي والرأي فيها واضح! لكن هاشم يرد حجته بسرعة واستعداد كما كان دائما. فمن قال يا أحقق؟ لا نريد الكبيرة ولسنا بحاجة إليها، خلوة بسيطة داخل السيارة، وأنت تعرف الباقي، اعترض خالد:

- عاوز تقنعني ان ده مش حرام؟
- وانت عاوز تقنعني إن البيرة زي الويسكي؟
- انت بتضحك على نفسك.
- وانت ما بتضحكش؟ احلف بحياة ولادك إن مافيش واحدة؟
- ما احلفش.
- شفت؟

قالها هاشم وانفجر ضاحكا، أخبره أن الدم سينبثق من أذنيه، توصل إليه أن يحكي له فيسره في بئر، لكن عليه ألا يتصنع دور القديس مرة أخرى.

- ما اقدرش اعمل اللي بتقوله، ومش كل الناس تقدر.
- كل الناس تقدر، وانت هاتعمل، وهاتشوف، وابقى افتكرني.
- الناس مش زي بعضها، انت راجل بتاع قانون وعارف.
- عارف إن الناس اللي بتقول عليهم دول ما يدخلوش واحدة في حياتهم من الأول.

- مش كل الستات عاوزة منك بوس وأحضان في عربية على طريق الساحل.
- تبقى لسا أهبل زي ما انت.
- وانت تبقى لا محامي ولا شفت زباين كفاية ما دام مش عارف إنهم موجودين.
- طب انت عاوز منها إيه؟
- عاوزها تكون موجودة في حياتي، بس كده.
- مش بقولك أهبل!
- افهمني، فيه ست، ما ينفعش تخسرهما.
- ليه يعني؟ شجرة الدر؟
- اللي أقدر أقولها لك إنها من نوع الزباين اللي انت لسا ما قبلتوش.

شعوري الجديد يعيدني لأيام المراهقة، أريد أن أكون غير مسئولة من جديد، عنيقة، منفعة، طائشة، مفعمة بالجنون والحركات غير المحسوبة! قالت رفاء. ردت داليا على صاحبها أنها أبدا لم تكن كذلك فيما مضى!

- مش عاوزة أفكار! سيبيني أطيروا! ثم مش يمكن انتي اللي كنتي مش شايفاني؟
- فعلا؟ -تستنكر داليا - طب ممكن نسأل يوسف!

لم تهتز رفاء من ذكر اسمه كالسابق، أصبح ذكره عاديا من سنوات، ربما لأن اسمه في سنوات المراهقة يعني يوسف آخر. تشتبك مع الأغنية التي تنتصر وتدوي في أذنيها:

«يا عاقد الحاجبين على الجبين اللجين

إن كنت تقصد قتلي قتلتني مرتين».

تذكر هنا فرحتها باعترافه المضمرة أن هواها يقتله، أو هكذا ظنت.

«تمر قفز غزال، بين الرصيف وبينني

وما نصبت شباكي ولا أذنت لعيني»

تذكر كم كانت مندهشة من اتفاق الأغنية لهذا الحد معهما، لقد وقعا من دون نية، هكذا برمشة عين، أو هذا ما أرادت أن تفهمه. كانت دوما ما تندنها وتغنيها وهي فتاة يافعة تنظف البيت، وتقفز برشاقة ربما لتؤكد لنفسها أنها غزال. أهداها لها يوسف، بشكل خفي ودونما كلمة، ينتظر حتى تأتي لبيتهم، فيركض نحو جهاز

التسجيل ويشغلها، تفهم جيدا أنه يرسلها لها. كانت بعكس الفتيات منغمسة في لذة عدم البوح، لم تعرف أنها ستندم، إذ ستنظر لماضيها يوما لتكتشف أن أحدا لم يقل لها طوال حياتها «بحبك»!

ضاقت عيناها وهي تقاوم موجة حزن عارمة تضربها، في الحقيقة، وحينما تتذكر كل ذلك، وتفكر فيه، تدرك بقلب خائب الرجا أن يوسف ابن خالتها لم يحبها يوما، معتز أيضا لم يحبها، وكأنها لا تصلح للحب! معتز تزوج فتاة ملائمة، وجدتها أمه ملائمة، بل إنه كان سيتركها حين اعتقد أنها تعاني الربو، «عاوز واحدة سليمة!». قصة ملايين بجوارها هي قصتها، وكان عليها أن تعلم أن الحب والرغبة ليسا بالأمر الهين!

تذكرت داليا على الخط، قالت بعبوس:
• انبسطتي لما نكدتي عليا؟

تابعت داليا السكوت حائرة، لكن رفاء عادت للابتسام، تُذكر نفسها؛ أريد أن أكون عنيفة، منفعة، طائشة، مفعمة بالحركات غير المحسوبة! في العمل يلحظون، أضحك كثيرا، من دون داعٍ غالبا، أضحك بعدوانية، بتوتر، كأني أغتصب الضحك! أنا سعيدة، مورفة، من بعيد ودون رحمة يلاحقني السؤال ذاته، ماذا يجري لها؟

سمعت في أحد المحال أغنية عتيقة أعادتها لأيام الكلية، ولم تصدق تلك الحالة الجنونية التي انتابتها. كل ذلك من «Back Street Boys»؟ سألت نفسها وهي تضحك بصوت عالٍ متجهة لسيارتها تأخذ نظرة لوم من عجوز واقفة أمام أحد الأكشاك، وصفير من أحد الشباب من داخل سيارته. بسرعة بحثت في هاتفها والتقطت أغنية «Everybody» لنفس الفريق من على الشبكة وقامت بتشغيلها على الهاتف، رقصها في أثناء القيادة أصبح هواية، وهي إذ تقوم بسماع المزيد من أغاني الفريق، تتابها نفس حالة الجنون لكن بهستيرية أكبر! تكاد تحدث تصادما ولم تكف بعد عن الضحك، ثم تردد الكلمات معهم. يا إلهي كم كانت سعيدة في الجامعة، كانت منطلقة، رغم صعوبة المذاكرة. لم يخبرها أحد كيف سيحتجزونها في بيت قائلين لها أنتِ أم ومسئولة!

تذكرت كيف كانت ملابسها تخلو من أي ذوق فتضحك أكثر! كانت تخلو من الذوق ومن الأناقة، فقد كانت وقتها في اعتقاد راسخ أن البنطال حرام، وأن الفضفاض هو الفرض والواجب، لم تكن تناقش، تذكرت رياض الخولي في فيلم (طيور الظلام) وهو يمثل دور الإسلامي المرتزقة أمام عادل إمام «لا تناقش ولا تجادل يا أخ علي!»، يال حماقة! يال الغباوة! أي مخ يا مسكينة؟ الذنب ليس ذنبها، الذنب ذنب من أدخلها مدرسة أزهريّة، جعلتها حتى بعد دخول الجامعة تحرم الكلام مع أي شاب كأنها ستصاب بالطاعون.

هنا فقط خفتت بسمتها، خمس سنوات لم تكلم فيهم شابا واحدا، أيضا في اعتقاد راسخ أنها على صواب، وأن الأخريات منحلات، وها هي تتمنى لو تتحدث مع كل رجال الأرض.

الرجال.. يحبون السافرات ويتمنون العاهرات إلا على ما ملكت أيمانهم! مضحك حقا، تذكرت قولة مارلين مونرو: «سأكون الساقطة التي يريدون». صدمة أن يعجبها شعور المنحلات! إنهن واثقات متأكدات أنهن قادرات على جرّ الرجال بحبل كالخرفان.

اتصلت بداليا وهي عائدة مرة أخرى بما أن زوجها -كما يدعي- عند أهله، قالت لها: «بسمع Back Street Boys». سمعت ضحكها الصاخب وراحت تخبرها أنها سعيدة لأن صوتها تغير ولم يعد كئيبا، سألتها داليا عن تأخرها على البنات، لكنها تجاهلت السؤال قائلة:

- فاكرة لما دخلنا فيلم Face Off ثلاث مرات؟ وكنا إحنا الثلاثة بنتخانق مين فيهم أحلى في دور الطيب ومين أحلى في دور السافل؟

ضحكت داليا وقالت:

- أول مرة بسمعك تقولي سافل.
- يا بنتي لو عديتي الحجات اللي بدأنا نعملها بعد الثلاثين هاتلاقي كلمة «أول مرة» دي بتتقال كتير.
- شكلك مش هاتجيبها البر يا رفاء يا حلمي! ما طلبتيش دعاء قريب؟
- لا، مش طالبة قناة الجزيرة.

تذكرها داليا كم أن ثالثتهما طيبة «غلبانة»، ربما هي سيئة الحظ، زوجها قدرها، حتى وإن كان يعجبها.

- مش عارفة مين اللي حظه وحش، أصل فيه ناس بتنبسط بقليلها! دعاء ليها نظرة عجيبة كده للدنيا مش عارفة بتجيبها منين، أديني بقولها لك أهه، كنتي أجدعنا في الحظ لَمَّا نقلوك من المدرسة دي.
- بتحسسيني اني منحلة.
- إطلاقا، على الأقل اخترتي شريك حياتك زي الأفلام، مش أهلك جوزوكي، زي الأفلام برده!
- اسكتي يا رفاء والله حسام مطلع روجي! ما حدش عاجبه حاله.
- آه، طيب ما دام حولتي على الجزيرة أروح أنا الحق بوليوود.

سألتها داليا:

- مين فينا دلوقت اللي منحلة؟

قالت رفاء:

- ده أنا هاوريكم الانحلال على أصله!

ضحكتنا وأغلقتنا الخط. هي تنتظر الوصول للبيت بفارغ الصبر كي تحاوره، ثم قالت في نفسها لم عليها انتظار البيت؟ وقررت أن تشترك في باقة أكبر تسهل لها الوصول للفيش بوك في أي وقت. أصبح هاتفها ملتصقا بكفها، حين تتحرك داخل البيت تُدخله في ملابسها كي لا يُعلق معتز.

بعد الوصول، وداخل حجرتها، أخرجت الكيس السحري الذي انتظرت أن تصل لتفضيه، أخرجت (بيجاما) رائعة اشتريتها من الساتان الذهبي المؤطر بالدانتيل الأسود، ارتدتها ثم صورت نفسها وأرسلت الصورة لداليا.

اتصلت بها داليا في التو تقول:

- إيه الصياغة دي يا هانم؟ وبمناسبة إيه ومعتز مسافر؟

قلدت صوت سعاد حسني في فيلم (غريب في بيتي) وهي ترد:

- هي الواحدة لما تشوف نفسها شوية، يبقى لازم فيه فحياتها راجل؟

قالت داليا وهي تقلد نبيلة السيد:

- أحلق شنبلي إن ما كان فيه إنّا! - ضاحكة - بقيتي دمك خفيف مش فاهمة ازاي؟

- فعلا؟ طب مين اللي كان بيقولي كده واحنا صغيرين؟

سكنت داليا، ثم قالت إنها حقا من كان يقول لها دوما أنها خفيفة الظل، سكتتا بينما تنهدت رفاء وعلقت إن الزواج على ما يبدو يُعلم ثقل الدم.

ابتسمت تنظر لبيجامتها الـ (sexy) الجديدة في المرأة. بدأت تهتم كثيرا بالملابس الداخلية، اكتشفت عالما ساحرا من التصميمات والبراندات، الألوان والأقمشة الناعمة، القياس والنظر للمرأة أصبح طقسا يبهجها، غير أنها تنظر لظهرها أكثر، ترهل البطن يشقها نصفين. أصبحت تحب كثيرا أن تنظر لنفسها فتري أنها مثيرة، لم تكن هكذا، لم تكن تحب الغواية بأي صورة. نظرت جيدا للمرأة، قالت لنفسها بل كنتُ كذلك، كنت ككل البنات، سعيدة بأنوثتي، تواقا ليقدرها أحد، منتظرة على جمر الجواهرجي الذي سيعاين الفص ويقر أنه حر، نادر المثل، لكن ماذا حدث؟

رفعت ذقنها أمام المرأة، ركبّت الابتسامة، راحت تقلد نجمات السينما وترفع شعرها بذراعيها مرة، وبذراع واحدة مرة وكأن أحدهم يلتقط لها الصور، لكن فريدة تكسر اندماجها في دور هند رستم هذا قائلة:
• هو انتي بتعملي إيه يا ماما؟

نفخت رفاء خفية وهي تغلق الدولاب وتلتفت إليها قائلة:

- نعم؟ عاوزه حاجة؟ خلصتي واجباتك؟
- خلصت، وكنت عاوزه أسأل ممكن اطلب ماك؟
- إيه المناسبة؟
- وإيه المناسبة إنك اشتريتي بيچاما جديدة؟
- يا باي!

قالتها ممتعضة وهي تتحرك لحقيبتها وتخرج منها خمسين جنيها:

- اتفضلي! أختك نامت؟
- من ساعة.
- نوم الظالم عبادة.
- مانتي عاوزه تخلصي مننا وخلص.

قالتها وخرجت، فنادت رفاء بصوت عال عليها وهي تنفث الغضب:

- حد قالك قبل كده إنك قليلة أدب؟
- لأ.
- أنا بقولك!

خرجت الفتاة وهمت أمها بتغيير البيچاما لترتدي قميص نوم قطني عادي، وتجلس لتذاكر.

(يسألني صديقي ماذا تريد منها، لم أكذب، أريدها في حياتي، شيء ما عذب يستمد طاقته من وجودها بالجوار، لم أكذب لو أجمعنا أن قول نصف الحقيقة ليس كذبا! فهناك النصف الآخر الذي تعيه جيدا يا صديقي وأعياه، متى ولماذا نشعر بالرغبة؟ سؤال في ظاهره البساطة لكنه معقد في رأيي، نشعر بالرغبة لأسباب عديدة، من أول النظرة قد تندلع شهوة، وحتى بعد الوصول للحب كذلك نشعر بالرغبة، هذا بشري،

وبين هاتين درجات كثيرة نشعر فيها بالرغبة، ليس التعقيد هنا، إنما التعقيد فيما يمكننا إطفائه مما لا يمكننا يا صديقي. «ماذا تريد منها؟»، وإن كنت أريد، ما الذي سيتغير؟ ليس من حقي سوى أن أحلم، ليس من حقي سوى أن أتخيل وجهها على جسد بطة أحبها في فيلم أدمن مشاهدته، أجل أقول «حقي»، أنا للأسف من هؤلاء الذين لا يتجاسرون على مجرد التفكير في أخذ حق آخر، سمها جبن، سمها خوف، حماقة، أطلق عليها ما يحلو لك، لكني لا أجسر، لي قدر ولها قدر وانتهى الأمر. ثم تعال هنا، وإن جسرت وإن اختلت موازين عقيدتي، إلى أين سيأخذنا ذلك وإلى أين سيأخذها؟ تريدني أن أكسر غلاتها الرقيقة التي تحيط بها نفسها كي لا تنكسر عقيدتها هي الأخرى؟ تريد مني أن ألوثها؟ كلا، لن أكون هذا الإنسان، لا أقدر أن أكونه، لا أريد أن أكونه.. بل.. أردت أن أكونه.. لكني لا أستطيع...).

اكتشف خالد أن معدل تنفسه زائد، أعاد قراءة ما كتب، ثم فكر في محو بعضه، ثم ذكر نفسه أنه شديد الحرص ألا يرى سواه ما يكتبه، من يهتم؟ «منة» زوجته لن تتعب نفسها وتترك أحد واجباتها كي تتفقد، ثم أنه يراعي انكشافه في جميع الأحوال، لا يذكر أسماء، لا يذكر أماكن أو أزمان، ولا يوغل في التفاصيل، لكأنه يكتب ما رآه في أحلامه مثلا. بدا راضيا، ضغط زر الحفظ، وأغلق الحاسوب وخرج من الغرفة.

كانت زوجته جالسة على مائدة الطعام، والولدان منخرطان في عمل الواجب والتلفاز مفتوح، وهي تتابعه ويدها تعلمان بشكل ميكانيكي في تطبيق الملابس التي جفت من على الحبال، سألتها عن قمصانه، كانت مندمجة مع البرنامج الديني، أعاد سؤالها فنفخت:

- ما تيجي تشوفهم يا خالد! أكيد في وسط الهدوم.
- أنا بسالك لأني طلبت منك تكويلي قميص لبكرة.
- مش هلحق، زي مانت شايف، يا دوب أخلص هاييجي معاد نوم الولاد وهقوم معاهم.
- وكالعادة هتنامي معاهم.
- خالد! هو أنا دايمًا غلطانة؟ ممكن أتفرج على البرنامج؟
- فهمت، اتفضلي اتفرجي، أنا نازل الچيم.
- مش عارفة بصراحة موضوع الحديد اللي طلعلنا في البخت ده، عمر الحديد ما هيتخنك!
- خليك في برنامجك.

ترك البيت ونزل، وبصراحة، هو لا يكف عن الشعور بالسعادة الحقيقية وهو خارج من البيت.

تضارب المصالح تعبير معروف، معتاد، يمكن أن نعتبره من أسس الحياة. أي علاقة بين طرفين - أيا كانت - يكون فيها مصالح، حتى علاقة الحب؛ لأن الطرفين، أو أحدهما بحاجة للشعور بأنه يحب ويحب، مصلحة غير معلنة، عدم تحققها أو توقفها يسبب انهيار العلاقة! لكنها على الأقل علاقة متوافقة المصالح، أما تضارب المصالح، يظهر حين تكون مصلحتك لا تؤدي لمصلحتي! الأقوى هو من سيبلغ غايته ويأخذ مصلحته، الأضعف سيعاني، ليس لضياع مصلحته واستغلاله فقط كما قد يبدو، بل أيضا لكونه يرى بوضوح كيف أن الطرف الثاني، المستفيد، المنتصر، لا يشعر بألمه أو فقده أو هزيمته، أبدا.

ربما لذلك كانت الجاسوسة مديحة كامل وهي مع أحد أفراد الموساد الذي جندها، عبد العزيز مخيون، حينما كانت تبلغه بالمعلومات، أشارت بشكل عرضي إلى أن الضابط الهام الذي نامت معه كان «حيوان معاها جدا»، لكنه كان يتجاوز قولها دون أي تعليق، ويستزيد من معلوماته مشجعا، وكانت تكمل سيل التبليغ كأن قولاً لم يُقل.

الصعود إلى الهاوية

- الصباح التالي بدا غير اعتيادي في مبنى المديرية، سألت زميلتها «شهير» عما هناك، قالت لها: أحمد كمال عبد العظيم. فكرت رفاء لثوان في الاسم، ثم استفهمت إن كانت تقصد من كان مرشحا لمنصب وكيل أول وزارة الصحة؟
- هو، لكن ما قدروش عليه -ضاحكة- مشوه حسن سير وسلوك! حدوتة قديمة متكررة بتاعت واحد عنده ضمير، كان «ها» يوصل لمركز محترم و«ها» يعمل حاجة عدلة وبعدين...
 - بعدين بخ! لكن ما فهمتش، ماله؟
 - هايتعين هنا يا ستي، حنة منصب إداري مالوش تلاتين لازمة، ما يقدرش يزعجهم من خلاله.
 - هي دي كمان جامعة الدول العربية؟
 - يا ستي ما هي نفس المنظومة واحنا جزء من العرب برده، اللي وقفوا يتفرجوا، ولا كان اللي ماتوا دول...
 - وحياتك ما تبتديش، هي مش ناقصة اكتئاب.
 - مافيش غير الاكتئاب يا عنيا طول ما احنا نور عنيه!

التقته رفاء أمام المصعد صدفة بعد أيام، هو يُبكر كثيرا مثلها إذن، فبعد نصف ساعة أو أقل سيعج هذا المبنى بالبشر من كل صنف ولون، وسيكون هذا المصعد علبة

سردين بشرية. قال صباح الخير وأجابته وهي واقفة بارتباك، مثله لا يقف صدفة بجانب مثلها، لكن كل شيء انقلب. فاجأها شباب بادي على هيئته رغم أنه من المفترض كبير السن، ويبدو أن المفاجأة بانته على وجهها، لأنه التفت لها مبتسما، فابتسمت سريعا بتوتر ونظرت نحو الباب الذي يفتح، لم يدعها للدخول قبله، دخل وتبعته. سمعته يقول: الثاني. التفتت وإذا بالأزرار خلف ظهرها، ضغطت الزر وقالت إنها تعرف طبعاً! ابتسامته غريبة في عذوبتها، قال: «انتي تعرفيني؟»، اندهشت إذ كان صادقا، ألا يعرف أنه معروف؟

- الأستاذ الدكتور أحمد كمال عبد العظيم، أشهر من نار على علم!

وصل المصعد، لكنه حين خرج أمسك الباب بيد يسألها عن مَنْ هي، ذكرت اسمها ومنصباها، ابتسم وهو يفلت يده، وفي أثناء انغلاق المصعد لمحتته يحرك كفه بظهره «باي»، تماما مثل عادل إمام حين أولى ظهره لشريهان التي تلت السلام أمام مستشفى الأمراض النفسية في (خلي بالك من عقلك). في الحقيقة ظلت مرتبكة للحظات، ها هو بطل مسلسل (أنا وانت وبابا في المشمش) الذي لم تصدق أن له وجود في الدنيا! ها هو يقف بجانبها. هي متأكدة أنه سينساها بمجرد دخول مكتبه، لكنها لن تنساه أبدا، محارب طواحين الهواء. بحة في صوته تشي بتدخين، جبهة شديدة الاتساع تسطع بها لمعة مميزة، وبنية متوسطة الطول والعرض، متماسكة، تعتبرها نشازا حقيقيا وسط الموظفين الحكوميين المعتادين.

كان غريبا أن نسيت هذا الحدث تماما رغم ما ترك في نفسها من سعادة غير مبررة، ولم تذكره في حديثها مع خالد سوى بعد أيام، حينما لمحتته والسائق يحمل حقيبته متجها خارج المبنى نحو سيارة Passat، واندفعت تسأل خالد إن كان يعرفه. قال طبعاً؛ لكن حينما ذكرت له موضوع «الدونكيشوت» قال لها شيئا غريبا، قال:

- على مرّ التاريخ في دونكيشوتات كثير، كل فترة يظهرها ماسكين الراية، وللأسف الشعب الغلبان هو اللي بيطفح المسرحية المؤلمة دي! واحد عاوز يعمل فيها سوبرمان، وطبعاً نفسه يلمله شوية عبيد حوالية يصدقوا حلمه العربي، ويخلوه قائد، مع إن ما حدش غيرهم اداله القيادة.
- ليه ما تقولش إن الضايعين كثير ومحتاجين قائد؟ مش بدل ما حنا كلنا مسلمين الراية البيضاء؟
- شغل المشمش والراية البيضاء والهبل ده كله أثبت فشله على أرض الواقع، مين قال إن البلدوزر بتاع فضة المعداوي مش هايدوسهم ويقطعهم ستين حنة؟
- مش هايدوسهم! مش هايدوس كل دول!
- نسيتي يا روجي كام واحد من شباب بلدك الفسافيس اندهس ولا اتشد من شعره جمب الزبالة في اللي ما تتسمى نكسة يناير؟

غضبت من هذا الرد ودافعت تسألته، لماذا يعجز عن رؤية أي جمال؟ أجابها هازئاً أنها لو وجدت أي جمال في هذه الدنيا المقرفة فلا بد أن تشير عليه! وأنها إن ضاقت ذرعا بأمثاله من الواقعيين فعليها إبلاغه كي ينسحب فوراً. نظرت للشاشة بغضب يتزايد مع الثواني! ماذا تكتب؟ تشتتمه أنه دائماً وأبداً على استعداد للتضحية بعلاقتها عند نفس الاختلاف؟ لكنها تخشى أن تضحي، ممّ تخشى؟ كتبت أنها فعلاً ضاقت ذرعا، ووجدت أنه يكتب (OK) ويخرج من المحاورة، ببساطة ودون تلوّك، ودون أن يترك لها حتى طريقاً للمصالحة، وتركها تتلظى. هي لا تعني له أي شيء، هي لا تعني لأي أحد أي شيء، كانت منفعة بشكل بالغ، ووجدت نفسها تبكي طول الليل، لم تعرف هل وجود معتز كان سيساعدها في عدم الانصياع للانغمار في عذابها النفسي، أم سفره كان الحل لتخرج كل طاقة الألم من جوفها بحرية ودون مساءلة؟

حين قالوا لها أن العريس يسافر كثيراً بحكم عمله «Business Development»، لم تفهم إن كان عليها أن تغضب، لم تشعر بشيء محدد.

في الصباح التالي كانت متوعكة، وقلقها الداخلي يتزايد، إذ تستشعر تعلقها به، وتجادل. حين كان يحدث بينهما تماس في أثناء اللقاء عن طريق الخطأ كانت ترتعد، هو يشتعل لكنها لا تدرك طبعاً. أول مرة كتب فيها عن غفوته على السرير ومحاولة زوجته أن توقظه ليتعشى، أول مرة ذكر ذلك شعرت بإثارة غير مبررة! ثم تساءلت كثيراً عن أحواله الحميمة معها، تساؤل تشتاق أن يطفئه بأي زلة ولو عن طريق الخطأ، لكنه لا يفصح إلا لماماً. هذه التفاصيل الحميمة تزداد دون أن تدري أو يدري يوماً بعد يوم. قليلاً ما تجاوز التحوار بينهما.. لكنه حدث.

تذكرت أول مرة رأته فيها، شخص شديد النحافة، عظام وجنتيه يشقان خده، وتفاحة آدم بارزة من دون أن يتحدث، نظارته ذات الإطار الأسود هي ربما التي أضافت تناسباً لمظهره، دكتور دكتور.

- لأ-ابتسم محرّجا - أنا خريج صيدلة بس.

كشفت عن أسنانها:

- يعني دكتور! أنت مش فخور ولا إيه؟ دول خمس سنين شربنا فيهم السم!
- يعني، بشتغل في صيدلية أصرف دوا كحة طول الوقت، ماعتقدش إنني أستحق اللقب، وكمان دخلولنا الماكياج والمانيكير مش عارف ليه، إمعانا في إثبات تفاهتنا مثلاً..
- ما دخلتش ليه قسم كLINICAL؟
- ما لحقتش، ما كانتش ترند زي دلوقت. وما كانتش هاتفرق كثير.
- ومين سمعك، يعني أنا بعمل إيه؟ قاعدة على المكتب زي قلتي.

• عاوزة تعملي إيه يعني تختري دوا؟

نظرت لتهكمه وضحكت، تلك الضحكة مغلقة الفم التي اعتادتها وسكين ينغرز في أحشائها، فبدلاً كانت تحب لو تقول: أجل! تمنيت وحلمت أن أخترع دواء، كنت متفوقة داخل معامل (الفارماكولوجي)، بدايةً من مسكة الفأر وحتى التقرير النهائي بعد الحقن، وتخيلت أنني سأستأنف العمل في الدواء. لكنه قال لها «أنتي عندك مسئوليات تانية جسيمة وعظيمة». ثم شرح أنه غير ضائق من كونه صيدلي، فالوقت الطويل يوفر له فرصة كي يقرأ ويتابع السينما ومقالاتها، بالذات بعد فشله في امتحانات المعهد. أزعتها كلمة «فشل»، وسألته أن يحاول مرة أخرى.

• أنا كبرت على المذاكرة، إنتي لسا بنوتة.

ضحكت من الإطراء، في الواقع أعجبها للغاية، ورغم أنها في المعهد تكون وسط طلبة صغار حقيقيين، فإنها لم تبد أكبر منهم، صحيح ليس لها شعر ميريام فارس المتكرر، ولا هذا الجينز المرشوش على الفخذ، إلا أنها بالحذاء الطويل فوق الجينز وحجابها الـ «سبانيش» ملأت ثقب السن. غلبها الحنين، رغما عنها كان شوقها إليه يدوس عليها.

كان المخرج محمد خان مسيطراً عليها هذه الأحياء إذ صادف حدث ما عرض أفلامه القديمة على الشاشات تباعاً. لم تكن تعجبها نهاية (بنات وسط البلد) رغم واقعيتها، وكانت تعجبها نهاية فيلم (سوبر ماركت) للغاية. أحبت عادة عادل التي ذكّرتها بسذاجتها لكنها لم تتخل عن أحلامها (في شقة مصر الجديدة)، لكن المشهد الذي علق في ذاكرتها كان في أحلام (هند وكاميليا)، أحمد زكي مستلقٍ في شقة رخيصة على سرير حقير يكلم صاحبه، يقول إنه «قرف من العيشة دي»، وتسلط الكاميرا عدستها على صرصار مقزز كبير يتحرك على الحائط، يقوم الرجل الحانق بقتله. سُمي خان بمخرج الصراصير بعد هذه اللقطة الجريئة في سينما أحب جمهورها التدليل الاجتماعي، في نفس اللحظة تصاعد صوت الشجار بين الفتاتين الكبيرتين فأعادها لواقعها، أتجهت لهما رأساً وصرخت عالياً في وجهيهما فأسكتتهما! وجدت نفسها تقول إنها «قرفت من العيشة دي!».

ظلت تفكر لأيام في هذا الفيلم، عرفت أن بطولة الفيلم كانت مرشحة لالتقاء فاتن حمامة وسعاد حسني، للأسف لم يتم لهما ولخان ذلك، امرأتان حلمتا بما يمكن أن تسميه أحلاماً مشروعة، بل آدمية على أقل تقدير، لكنهما لا تحققان شيئاً منها، وتستمر حياتهما البائسة على بؤسها بأمل لا يندفن. فكّرت.. لا يُخفي خان أبداً

- تعظيمه للمرأة التي احتلت بطولة معظم أفلامه. في أثناء تصفحها للجرائد وقع نظرها على مقالة عن الأمر بإيقاف فيلمه الجديد، ولمحت أسماء المشاركين فيه والمعترضين على القرار، كانت مشدودة بكل حواسها، حبها لهذا المخرج تحديدا ولأفلامه، بالإضافة أن أول فيلم قامت بتقديمه كطالبة في المعهد كان (زوجة رجل مهم)، شعورها الجامعي اللذيذ وغضبها من الخبر و...
- رفاء، رفاء تعالي كده.
 - ثانية واحدة.
 - يا رفاء!
 - إيه؟ فيه إيه؟

قالت ذلك صائحة، فصُعق معزز وسكت لثوان، ثم قال مستنكرا:

- بتزعقي ليه؟
- ما فيهاش حاجة لما تصبر عليّ ثواني! قلتك ثواني!
- أنا كنت عاوزك تشوفي إعلان العربية بتاعتنا الجديد.
- الإعلان هايتكرر يا معتزا!
- أنا آسف!

صاح وقام منفعلا من أمام التلفاز. لم تذهب رفاء لمصالحته مثل المعتاد رغم أنه عاد توا من السفر، في الواقع كانت سعيدة أنه اختفى من أمامها. تعرف أنها الآن إنما تبدو متوحشة أمام البنات، لكن وليكن! قليل من الخوف صحي للمرء. سمعت صوت نومه من مكانها، ما أسهل أن يقع في بئرهِ! قالت لبناتها إن ميعاد النوم قد آن. تحركن صامتات أمام الوحش طبعاً، وقد هنتت ببعض الوقت لنفسها إذ نمن سريعا من دون قصة لأنها غاضبة، وكم كان رائعا أن تخلص بوقت ما لنفسها، تشاهد فيلما، تكتب مقالة، تتسامر مع خالد من دون «ماما، ماما!». المرأة العاملة التي تنام من العاشرة والنصف، والتي تصل قبل ميعادها للعمل في الصباح سهرت للواحدة، واستيقظت باكرا مبتهجة رغم ذلك.

في الصباح التالي كانت «دعاء» معها على الخط، تشكو لها من داليا، تقول إنها منهارة من الأمس، وعليها حقا أن تنهار. الهانم تركت طفلها لوحده وذهبت للسينما الليلية فعدت لتجد أنه منفطر من البكاء وحيدا داخل سريرهِ! ماذا توقعت؟ وكيف جرأت وفعلت به ما فعلت أصلا؟ الانهيار أقل واجب.

- ما بلاش الجلد اللي انتي بتعشقيه ده يا دعاء! هيه كده كل أسبوع؟ ولا حتى كل شهر؟ دي مرة!

- سكتت دعاء مصدومة، ثم سألتها من يتحدث؟ قالت تُذكرها هل نسيت أنها كانت أول أم في رابطتهن الصغيرة، وأنها من جف فمها وهي توصيهما بالأطفال.
- ماجراش حاجة لما الست تفك عن نفسها شوية قبل ما تنفجرا!
- على حساب ابنها؟
- على حساب الجن الأزرق! ما هي لو انفجرت مش هايبقى فيه ابنها أصلا.
- انتي بتتكلمي كده ازاي؟
- بكلمك بمنطق لو سبتي صومعتك دي عشر دقائق وبصيتي فيه هاتلاقيه صح مية المية.

أصوات النساء تدوي من الشرفة، تتأفف رفاء خفية وهي تصطنع الابتسام، بركان يفور بداخلها، سمعت لمياء زوجة ابن خال معترز تشكو من آلام الركبة، والسبب هو الوزن الزائد، فتغير مسار الحديث للوزن ومعجزة خفضه بعد تكرار الولادة، وحذرت والدة لمياء أن النزول في الوزن كالمستحيل بعد الأربعين! تصايحوا محزونين على قرب الأربعين، تذكرت زينة في فيلم (بنيتين من مصر) حين قامت واقفة فجأة في وسط النسوة اللائي يتحدثن عن ضرورة الحياة دون رجل، قامت زينة فجأة قائلة «أنا آسفة! عاوزه امشي!»، رافضة لما تسمع وما لا تطيق. قامت رفاء واقفة فجأة وقالت مستأذنة أنها ستذهب للحمام. لم تخجل لهذا الذكر كما كانت في السابق، كانت عبيطة، تصفرّ وتحمرّ بمجرد ذكر الولادة أو الرضاعة كموضوع عام للنقاش، الآن تفعل ما هو أكثر! تعلق على لقطات خارجة في أفلام السينما بطلاقة، تضحك وهي تقود السيارة إذا ما غمز لها أحدهم، تمتنع عن الصلاة إذا ما قام الجميع للجماعة دون أن تختفي كالسابق، في آخر لقاء عائلي اعترض معترز! عَنفها، أليس من الذكاء أن تقدم حجة غياب مناسبة كأن مكالمة جاءتها؟ الكل فهم أنها حائض، انطلقت ضحكتها الصاخبة وهي تقول: «ما يفهموا!»، لا يريد معترز أن يفهم، لن تترك دقيقة أخرى تمر في أي قلق أيا كان بسبب الناس.

تركت طفلتها جالسة وتحركت نحو الداخل مسرعة، علقت أخت لمياء الكبرى أنها دوما ما كانت رافعة أنفها «على إيه مش عارفة»، دافعت لمياء الأكثر احتكاكا بها، فطالما كانت بشوشة ولطيفة المعشر، إنها فقط متغيرة هذه المرة، لا أحد يعرف ما بداخل البيوت. هنا تدخلت أمهما لمدح ابن أختها معترز والذي تتمناه أي امرأة، وقد تمنته لإحداهما كما قالت مرارا لكن النصيب.

خرجت رفاء من الحمام تبحث عن شيء يسليها، لا تستعجل العودة، وقعت عينها على سليم زوج لمياء داخل المطبخ، يقف أمام الغلاية في انتظار الماء المغلي لصنع

مشروبه الساخن، تظاهرت أنه فاجأها، فهم أنها تريد أن تمر نحو الثلاجة التي بعده فالتصق في رخام المطبخ أمامه، ضحكت برقة وقالت إنه ببالغ؛ فهي رشيقة على فكرة، قالت ذلك وهي تمر، فعاد موضعه واستقرت هي في الداخل. فتحت الثلاجة تبحث عن أي شيء، ثم أمسكت علبة عصير، أغلقت الباب وظلت واقفة تتجاذب معه أطراف الحديث، تخبره أن الأولاد لا يصح أن يقفوا عقبه في طريق الآباء، عليه أن يسافر مع زوجته ويستمتع بحياتها. إصرارها على الفكرة كان غريبا، أثناء ذلك كانت تلوم لمياء كزوجة دون مكاشفة، الزوجة المصرية التي لا تقول غير «عيالي»! فلزوج عليها حق. ظل سليم يرتشف مشروبه ويده الأخرى في جيبه وكتفه متكئ على حلق الباب، ارتبكت من نظرتة لها، تعرف أنه مندهش، قلبت دفة الحديث تسأله عن رأيه في الأحداث الجارية، فرد معترضا أنها لو كانت تقصد أحداث رابعة وهذا الهم فقد طلق السياسة بالثلاث، باستثناء بعض سباب للرئيس التركي الذي يتدخل فيما لا يعنيه، هو لا يتحدث في السياسة ولا في جماعات محظورة أو غيره، طلقها وينوي أن يحتفظ بما في أوردته من دماء كي لا يطلق أم العيال أيضا. أطلقت ضحكتها الرنانة التي لم يسمعها من قبل، قال لها:

- ما كانش بيان عليكى زمان إن جواكى كلام.

ابتسمت وهي مغمضة، ثم ذكرته أنها ربما المرة الأولى التي يتحدثان فيها. راقبها وهي خارجة مُفسحا لها مكانا، سمعته يعلق:

- انتي غيرتي طريقة حجابك؟

ابتسمت: «تغيير»، زمّ شفّتيه موافقا، قال:

- طب ما تقولي للميا برده على المسألة دي ينوبك فيا ثواب، -هامسا ممسكا بياقته - هاشق هدومي!

ضحكت برقة، ها هو رجل يعجبه أن تكون زوجته متأنقة بخلاف زوجها! وجدت معترزا أمامها يسألها عما تفعله، رفعت يدها بعلبة العصير من أجل جنى، فأخبرها أن عيد الميلاد الذي ذهب إليه الفتاتان قد انتهى وجاء موعد الذهاب.

توجهت لتحمل ابنتها، سمعته من بعيد يتحاور مع سليم:

- يعني انت يا خي مقضيها رب البيت، مانت متلقح على القهوة كل يوم!
- ما تقلنا إيه الوصفة اللي بتلبدك في البيت يا سيدنا؟

قال معترزا شامخا:

• مش وصفة اللي بتلبدني، أنا اللي راجل بحب البيت والأسرة، أنا فاميلي مان.

حين نزلا السيارة كانت منتشية، ما هذا الذي يرفع هرمون «السيروتونين» بداخلها كل ذلك؟ نظرت نحو مرآة السيارة، منيرة كالبدن، ليس نور الجمال، إنه نور البهجة، لكن ما الذي يبهجها كل هذا؟

توقفت السيارة أمام البناية، وبعد مكالمة على الهاتف المحمول نزلت البنتان وركبتا، كالعادة متشاحتان مكشرتان، قالت الكبرى ذات الأربع عشرة سنة: «آخر مرة آخذك معايا!»، فردت الصغرى فوراً كصاروخ: «كل مرة بتقول كده»، ووجدت رفاء نفسها تصيح «بس!». سكتتا وتابعت أن أختها نامت. كأنما نزلا عليها ليذكراها، لست طالبة جامعية نجحت في حوار ممتع وترك أثر مع زميل جديد، أنت أم، «لأ وإيه» أم لثلاث بنات!

هل ارتحتِ؟ ارتحتِ يا رفاء حينما أثبتت لرجل أنك أفضل من زوجته؟ ارتحتِ حينما قرأتِ في عينيه أنه يغار من زوجك، وربما يتمناكِ؟

داست على ضروسها متأزمة، يجب أن تفكر سريعاً في حل لهذه الأزمة، لا لن تقع في براثن الذنب، إن كانت مذنبه فالكثيرون أذنبوا من قبل، لماذا لم يُكفر أحد؟! اجتاحتها صورة عادل إمام واقفا والسكرتيرة يسرا ملقاة من خلفه على السرير في غرفة عالية في أحد فنادق القاهرة الفاخرة في فيلم (طيور الظلام) وهو ينظر من فوق للنيل وينوي ألا يترك «فوق» لغيره ويظل هو يعيش «تحت»؛ لأن «البلد دي اللي يشوفها من فوق غير اللي يشوفها من تحت»، تماماً كالدنيا، كانت تراها من فوهة بركان هي داخله، صعدت للسحاب، لن تترك فوق، هيا هيا، تريد أن تصل لتدخل دوامة الفتيات من إلباسهن ونومهن، وتنتظر نوم معتز لتدخل جنتها، الفيس بوك.

في الحقيقة لم يكن برنامج التواصل الاجتماعي مسلياً على الإطلاق، أبداً! إنها كانت تراه عمل من لا عمل لهم، حتى ظهر خالد. كانت تبحث عنه طوال الوقت دون أن تدري، تبحث بشره! تحتاج له قبل أن تعرفه، تحتاج لرفيق رحلتها التي تغيرت أبعادها، رحلة العالم الموازي التي تداوى فيه أوجاع العالم الحقيقي الذي لا دواء له! علقت على نقده لأحد أفلام خان، وتبادلا حواراً ساخناً بين اثنين فاهمين، ثم وجدته يدخل ليكتب لها على الخاص، سأل باهتمام: «خريجة معهد سينما؟»، بعثت بعد وجه ضاحك: «لأ! صيدلة»، وحينما تأخر في الرد كتبت: «مستغرب مش كده؟»، قال: «جدا، أصلها بصره! وأنا كمان»، ذكر كلاهما أن اختيار التخصص في السينما لم يكن احتمالاً. هي لأنها من أسرة محافظة، وهو لأنه «هايطلع إيه؟»، ولم يخبرهما أحد على ما يبدو أن نفس المصير انتظرهما حتى بعد اختيارهما لكلية الصيدلة، وكانت هذه

مجرد بداية، تبعثها سلسلة واسعة من التشابهات، إذ كانا من مواليد ذات السنة، وذات
البرج!

كانت تسأله بشكل متكرر لماذا يعمل في صيدلية صغيرة، في شارع ضيق؟ حكي لها
أنه هكذا مستريح، فلديه الوقت الكافي ليكون إنسانا. لم يكن ذلك ردا مفهوما لها،
لكنها تتجاهل سريعا ما لا تفهمه، عادة بدت لها مريحة، ثم قال كلاما أسرها، إن كون
أثنين يملكان هذين الشبيين الغريبيين في نفس الوقت، الاهتمام بالسينما، والصيدلة،
يلتقيان، هو ليس صدفة. تركها تفكر، ماذا يمكن أن يكون القدر مخبئا لهما! هاجمتها
ارتعاشة خفيفة لذيذة سريعة، وكانت تلك هي المرة التي ما إن حدثت، حتى انفردت
صاحبتهما في سيل منهمر.

حين اقترب منها معتز تلك الليلة تركت نفسها بلا تجاوب، محاولة تافهة من زوجة
ساذجة كي يتركها، وكأنه يعبا بتجاوبها أو حرارتها. كثيرا ما خاض الليلة دون أن
تكون بعد مستعدة أو جاهزة للخوض. تفهم أن وجودها بين ذراعيه لا يحركه، إنها
حاجته لإطفاء جمرة. بينما يتحرك لوحده وتفشل -مثل كل مرة- في تخيل ما في
جوفه هذا الحجر؟ بينما يفعل تكون هي في تمنّ محموم لتلك اللحظة، أن يتوقف
وتسمع تشخيصه، الحركة الوحيدة التي تقوم بها، تلم شعرها الطويل إذ يشتبك به
ويؤلمها دون أن ينتبه. كان يُعلق يوميا منذ أن غيرت ربطة حجابها أن كتلة شعرها
تظهر من تحت الحجاب، صدمها مرة:

- ما تقصيه! منظره زي الورم فوق رقبتك تحت الطرحة، حتى لما نام، بيضايقنا جدا.

أزعجها حرف النون في «يضايقنا» أكثر من انزعاجها لكلمة «ورم»، ظلت واقفة تنظر
إليه بعد جملته السديدة، وشعرت تلك اللحظة دون جدال أنها تكرهه.

هذا الصباح كانت متذمرة تتأفف كارهة أن تقوم بهذه الجولة التفتيشية، قالت
شهيرة:

- مش نفسك توكل إليكي مهام؟ أهي المهام يا ستي.

حز في نفسها هذا القول، تتمنى مهامها ليست طبعا أن تفتش على المخزن هذا
التفتيش الروتيني الممل مثل مفتشي التموين، الجاسوس الذي سيكشف سترهم

لتقول الإدارة إنه يقوم بواجبه، أو الجاسوس الخائب الذي لن يشي لكن لن يحترمه أحد.

كانت قد التحقت بكورس التسويق الدوائي الذي عرضته المديرية على موظفيها من الصيادلة مثلما التحقت من قبل بكورس الإدارة الفعالة رغم أنها لن تصبح مديرة إلا بعد الخمسين «لو» شاءت الظروف. هي تهتم بحضور أي كورس يعلمها شيئاً ما، وصل إليها استحقاقها لحافز، لم تفهم إن كان ذلك مدعاة لفرحتها أم قلقها، ستفهم لاحقاً.

أما السينما، فالمهمة فرجة! أن يكون الواجب فرجة على فيلم وكتابة تحليل له في مقال لا يزيد عن ألفي كلمة لهو واجب رائع. فيلم لوحيد حامد الكريه بالنسبة لها لكن لا بأس، نقده سيكون جزءاً من المقال، التوجيه وتكرار الصور الشائنة للملتحين شيء أرعن في نظرها، تكرار القالب بحد ذاته عيب مطلق. ستفعل، المهم ألا يكون مباشراً أو مطولاً؛ لأنه ليس نجم المقال، ولا عادل إمام هو نجم المقال، النجم هو الفيلم نفسه: (الإرهاب والكباب).

تذكرت حين تفرجت على فيلم (الإرهابي) من أسبوع، تعاطفت مع هذا الشخص الذي آمن بجنة وهمية تكبد من أجلها المشاق، ثم نقل لجنة حقيقية واقعية أمامه قالوا له إنها حرام، أريكت إيمانه بالأشياء، وهي الدراية بالإيمان حين يرتبك..

بدأت تدمع، وتحولت الدموع لنشيج بينما ينادي على أفراد عائلته الجديدة وهو يتلقى الرصاص. جاءت الصغيرة وقبّلتها، لكنها لم تجبها، حين جاء معتز لم تشعر إلا وهي ترتمي في حضنه وتشهق، ليتها ما فعلت، لم يفكر معتز أن يعانقها أو يلف حولها ذراعيه، كان غاضباً، سمعته:

- ليه تعملي فنفسك كده؟ طب البنات مخضوضين!

رفعت رأسها من كتفه ونظرت إليه، وكم بدا قبيحاً في تلك اللحظة، ابتعدت عنه بهدوء وخطت للخلف ثم ذهبت لتغسل وجهها. سألت الوسطى عن العشاء، تحركت للمطبخ وارتعاشة بسيطة تسري في يديها، على المائدة رجتها الصغيرة ألا تبكي، وسألت الكبرى عن سبب بكائها من الأساس، سمعت زوجها:

- ماما أوقات كده تحب تنكد على نفسها، بترتاح، بس المشكلة إنها بتنسى اللي حواليا.
- بعيط عشان شفت فيلم مؤثر قصته بتدور عن واحد انتظلم من كل اللي حواليا، المجتمع، الأهل، العشيرة اللي آمنلها، وبعدين اتحاسب برده.
- بلاش الكلام الكبير ده ما حدش هايفهمك، البنات لسا صغار.

- تركت الشوكة بعصبية ونظرت له بتحدّ:
- لما تكون برغبتك مش قادر أو مش عاوز تعرف في الدنيا دي حاجة بره شغلك ده شيء يخصك انت حر، لكن أنا عاوزة أربي بناتي بشكل تاني.
- مفهوم طبعا تربيتهم عل النكد.
- أربيهم يتعرفوا عل المآسي الإنسانية اللي ممكن هم نفسهم يمروا بيها، أربيهم إن لقمة العيش مهمة لكن ما ينفعش تكون آخر دينيتهم زيهم زي الأجرية أو الفواعلية.
- قامت كي لا تترك له مجالا للرد وكانت ستنفجر من السعادة أنها لم تسكت. لم تكن تسكت فيما مضى، في الحقيقة كانت تعترض، لكنها لم تقل أبدا ما كان يدور في صدرها، كانت تعترض بشكل سطحي عيبط، ولم تعد تحتل هذا أكثر.
- فور ما أنهت المقالة كالمعتاد أرسلتها لخالد، كانا قد تصالحا وكان لا بد لها أن تعزز المصالحة بأقصى سرعة، وأن تكتب شيئا لتريه إياه وتستدر عودته لمجاريها، قال: «ممتاز، ناقص شوية رتوش»، راح يناقشها في وجهة نظره وطبعا لم ينسَ فرض رأيه الدكتاتوري بشأن عظمة وروعة وحيد حامد وعدم اتفاقه معها قائلا: «بطلتي سذاجة»، وكان هذا القول يزعجها بشكل بالغ، فما هي السذاجة؟
- كفاية اللي رايح يقول لبناتي أمكم بتعيط عشان بتحب النكد، حجات لا يمكن يفهمها زي ما نادية الشغالة لا يمكن تفهم فكرة المادة الفعالة بالظبط!
- أنتي عيطتي؟
- أنهرت! من أسبوع، انت مش فاهم، إن قلبي بينقرص.
- سلامة قلبك من كل سوء، الدموع دي غالية، ما يصحش تفرطي فيها كده عمال على بطل.
- مش حبايبك اللي عاوزين كده؟
- دول كلاب أصلا وأنا ما بحبش أفلامهم!
- ضحكت، أرسلت له وجها يضحك، وردت على «تصبحي على ألف خير» بمثلها، ونامت قريرة العين.

سألت رفاء لماذا التجمع عند دعاء؟ آخر مرة لم تكن لطيفة على الإطلاق، فقد حكت لهما دعاء عن زميلتهم التي كانت معهم في المدرسة الأزهرية «غادة إسماعيل»، وكيف أنها منذ اندلاع ثورة يناير أصبحت (Public Figure) وظهرت فجأة في التلفاز! وكيف تثرثر في تويتاتها بكلام غريب حول التعريف الصحيح للكُفر، وحول أن الشذوذ حرية شخصية، وأنه لا يشكّل فارقا في حكمها على الأشخاص سواء رجل

أو امرأة كأننا في أمريكا. فاجأتها رفاء أنها ترى ألا مشكلة في آرائها، ذهلت منها دعاء طبعا، قالت رفاء:

- حاولي تخرجي من الدائرة الضيقة بتاعتك! يمكن الشواذ بيتولدوا كده فعلا.
- بلاش عبط! -ردت دعاء- مستحيل، ربنا رحيم وعادل، ازاي يخلق فيكي شيء يضطرك لرديلة ويرجع يحاسبك عليها؟ ثم هي دخلها إيه تدافع عنهم ليه؟ أنتو عارفين إنها خلعت الحجاب؟
- ما تقلع الحجاب! -قالت رفاء- مش بس دي حرية، وكمان مين قال إنها اتحجبت عن فهم للحجاب؟ مين فينا فهم وأدرك معنى قيد كامل للممات قبل ما ياخذ القرار؟ فيه احتشام مع شعر مكشوف عادي.
- ابقِي قابليني! الشيطان مش عبيط، وبكرة زي ما قلعت هاتلبس البكيني!
- أسألي نفسك المجتمع اداها إيه؟ عشان في الآخر يعاقبها على خلع الحجاب! قالت رفاء محتدة.
- كلامك غريب يا رفاء، ولولا إني عارفاكي كويس كنت افتكرتك عاوزه تقلعيه.

وانتهى اللقاء الفائن دون أن ينتهي التوتر. لذلك شكت رفاء، يوم سبت يتيم سيلتقون فيه استغلالا لسفر زوج داليا ومعتز في صدفة إلهية رائعة، يكون في حوار العباسية عند دعاء؟ لماذا؟ تجيب داليا أنه لا يهم المكان، دعاء محملة بعبء أولادها وهي لا تطيق ما تطيقانه من إبقائهم داخل Kids Area. تذكر جيدا أن سؤال داليا البريء لزوج دعاء «عبد الله» عن متى سيفيران هذا السكن وينتركان هذه المنطقة الشعبية أزعجه للغاية، إنه منزل والديه المتوفيين، وهو يعتز به جدا. ترى هل موضوع المنزل ما أغضبه، أم ملابس داليا؟

دقت رفاء الجرس ثم دخلت منتشية حين فُتح الباب، نظرت لها دعاء نظرة ما وهي تستقبلها، فسألتها عما يزعجها في هياتها وهي تبتسم كأنما تغيظها، تنهدت دعاء وقالت أنهم لا بد أكلوها في الشارع قبل الصعود.

- آه طبعا، بياع البطاطا اللي على الناصية وصاحب المقلّي اللي قدام بيتكم أكيد.
- وحشتينا يا دعاء.

قالت ذلك داليا مغيرة مسار هذا الهجوم المبادر غير الموفق من رفاء، شعرت رفاء بقلّة ذوقها، قبلت رأس دعاء:

- أنا أقلكم جمالا، لازم اعمل مجهود لما آجي أقابلكم.

قبلت دعاء المصالحة ودخل ثلاثتهن لإعداد الشاي مع الكيك المعد مسبقا. ما زالت دعاء تعتمد على البيت في كل الموارد، لا يوجد ما يسمى بشراء كيك. الـ Car Seat الذي استعارته دعاء من رفاء جاهز بجانب الباب وقد تم تكييسه باهتمام، فقد كبر

طفلها عليه. جاءت سيرة عادة إسماعيل مرة أخرى، لمحتها داليا مع رجل داخل سيارة في منتصف ليلة ما، كانت متوترة، كأنه يسلمها مخدرات! تناوشت دعاء ورفاء، قالت صاحبة البيت:

- ما استبعدش عليها حاجة! شوفي تويتاتها بقت عاملة ازاي، دي تقريبا بقت ملحدة!
- واحنا مالنا؟ دي علاقتها بربنا.
- يا سلام؟ أي كلام تروجه والناس تتأثر بيه هتاخذ ذنب كل واحد فيهم.
- الغلطان اللي اقتنع بكلامها.
- منا قلت، هو غلطان هياخذ ذنبه لوحده، لكن هي هتاخذ ذنوبهم كلهم.

قالت داليا:

- يا جماعة الموضوع فعلا ليه أبعاد ثانية، إمبراح كتبت بوست بتسخر فيه من فرح، اتريقت على سبب عمل الفرحة، وليله لازم نلم ناس عشان يتفرجوا على اتنين أراجوزات قاعدين زي الهبل جمب بعض، والناس بتسقف على إيه؟
- واحدة عانس، عاوزاها تقول إيه؟ عادي.
- لا مش عادي يا رفاء، ده حقد! وتمني مبطن بتعاسة لكل المتجوزين، قلبت الود والفرح لعبط وهبل، إنسانة مريضة.
- كلنا مرضى -قالت رفاء - بس بأشكال مختلفة، السخط مرض، الغضب مرض، والجحود مرض، كلها أمراض قلوب زي الحقد تمام، تيجي تشوف الخيبة اللي المتجوزين فيها، مغفلة، بتحقد على ناس يمكن يكونوا اتعس منها.

تجاوزت دعاء ونقلت الحديث نحو الأولاد والمصروفات المدرسية، حكّت لهم داليا عن مدرسة قالوا إنها مطلقة ولذلك تأتي كل يوم بوجه مكشّر للأولاد، وما ذنب الأولاد؟ نفت رفاء أن يكون السبب هو الطلاق، وراحت تهزأ بالمدرسات اللواتي تأتي حانقات بسبب أزواجهن، الطلاق نعمة لا يشعر بها كثيرون! سدّت دعاء قولها سريعا «الطلاق أبغض الحلال عند الله»، فجادلتها رفاء عن حقيقة هذه المقولة وقائلها! ثم إن المهم في النهاية أنه حلال، وقد أحله الله لأسباب.

- أسباب قهرية تستحيل معها المعيشة، ربنا رحيم بعباده.
- مين يقدر يقول السبب القهري من اللي مش قهري؟
- الزواج ميثاق مقدس، والأسرة أعظم مهمة في حياة البشر!
- ولا العبادة هي أعظم مهمة في حياة البشر؟
- ده جدال! ثم أنتي بتدافعي عن الطلاق ليه؟
- أبدا فهمتيني غلط، الطلاق فشل! فشل للمست أكثر منه للراجل، نتيجته «سينجل ماذر» مسكينة صعبانة على اللي حواليا، وراجل بيدور على عروسة صغيرة عشان يعف نفسه.

تابعت رفاء بابتسامة شرسة:

- احنا ما عندناش رفاهية طلب الطلاق، مافيش فيلا لبابي عشان أرجعلها، مثلا عاوزاني اتطلق وارجع أعيش مع أمي المطلقة أصلا؟ ونبقى اتنين مطلقتين ومعاهم ثلاث بنات - همت بالضحك - الله!

راحت دعاء تنظر بتردد وتضيق عينيها:

- رفاء، إنتي فكرتي في الطلاق؟

لم تجب رفاء وولت عينيها وهي تتنهد، فقالت داليا للتشويش أنهم لن يتركز عادة مرة أخرى تفسد لقاءهن. عقب رفاء بالموافقة، راق لدعاء أن رفاء لا تتخذ عادة مثلا على كل حال. بدرت داليا في الرحيل لكن رفاء تلتبسها حالة تمرد فضلت معها أن تتأخر على البيت قليلا، قامت دعاء لتصلي، وانكأت رفاء على الأريكة تتصفح الفيس بوك، تسأل عن خالد، وهي تتمنى ألا يتأخر في الرد، صحيح أنهما يتحاوران ليلا، لكنها تريد أن تجده في أي وقت شاءت، كان يزعجها أنه ليس ملك يديها.

- السلام عليكم.

انتصبت واقفة من المفاجأة! وجدت عبد الله ينظر للأرض ومفاتيحه بيده، أدركت أنها كانت تتكى بشكل لا يليق هو رآه الآن، قالت أوتوماتيكيا أن دعاء تصلي، أعجبها أنه لا ينظر لعينيها، أين ذهبت وقاحته؟ سمعته يسألها: «إنتي غيرتي طريقة حجابك؟»، لثوان لم تستوعب، قال: «اعتقدت لأول لحظة داليا»، ابتهجت لهذا الإطراء وقالت مستعيدة ثوبها الجديد: «داليا بيضا وعينيها عسلية حضرتك»، قالتها ضاحكة وهي تعرف أنها تغيظه، فهو بالتأكيد يفض البصر ولا يتفرس في الملامح، نظر لها نظرة لم تعجبها، بخيبة أمل سائلا:

- ليه؟
- ربنا هداني لكده.
- ما تغلطي! الهداية طهر.
- طب ما تيجي نشوف أصل الكلمة في المعجم؟

نظر لها مرة أخرى مندهشا من سرعة الرد والتحفز، لكنه مثابر:

- ليه فعلا؟ النبي قال لا يكن أحدكم إمعة! الموضة ما يصحش تلغي عقلنا.

لم يتغير، لا يمانع في قذف الطوب أينما شاء، تعال لأربيك يا حبيبي، بجرأة وضعت إبهامها في جيبي الجينز ووقفت أمامه حيث الوجه أمام الوجه والقدم أمام القدم

- لتغيظه أكثر، قالت تسدد نظرات التسلط في عينيه:
• مش يمكن الإمعة ده هو اللي بينفذ تعاليم حرفيًا من السطح من غير ما يعقلها ولا يفكر فيها؟

كان عبد الله محدقا مذهولا، وكانت قد تراجعت حين سمعت صوت اقتراب صديقتها، وراحت تضع حقيبتها على كتفها وتلملم أشياءها.

- جيت بدري يعني يا عبد الله.
- بدري من عمرك، الساعة ثلاثة.

حملت الـ Car Seat فاعترضت دعاء أن عبد الله موجود وسيحمل عنها الكرسي طبعاً! أشارت لها بعرفان فهو كرسيها، وردت رفاء بسرعة أن دعاء هي المستحقة للعرفان.

قالت ذلك ربما لتعتذر، لتتأسف ضمنيا لصاحبته التي أخرجت زوجها من وراء ظهرها وحرقت دمه و...، ثم إنها ستكون بالتأكيد سببا في حريق بينهما بعد مضيها، فقد أدركت من نظرة دعاء أنه لم يكن من المفروض أن يراها عبد الله بهيأتها الجديدة، هو لا يملك حسابا على فيس بوك على أي حال. حمل الكرسي وسبقها، تحت العمارة مدت يدها لتأخذه منه فسيارتها بعيدة لكنه أبعد عنها مصرا، رماها بنظرة ما ولم يكن فيما مضى يفعل ذلك أبدا، حتى إنها اكتشفت اليوم فقط أن أهدابه كثيفة، دعاء تراها بوضوح قطعا حين تتفرس في ملامحه، هذا إن كان يتركها تفعل، لا بد أنه يسعد دعاء لتتمسك به هكذا.. قرصتها فكرة أنه خلف تدينه يعرف كيف يحب، اتجهت لسيارتها وفتحت له الباب فوضع الكرسي واختفى دون كلمة.

كانت تسأل نفسها طوال الطريق عما حدث، كان عبد الله ليرد على ردها برد أكثر غلظة وشراسة، سكت ليس بسبب زوجته، حينما كان غاضبا يفض بصره عن داليا وملبسها، كان يرفض أن يؤخذ بها غريزيا، أما الآن، فقد كان شيئا آخر. لقد خذلته بشكل ما، دون مبرر أو جعلها هذا الشعور، لكنه أخذ بها.. وتساءلت رغما عنها عن دعاء، ألا تملأ عينه؟ هل حقا يؤخذ بسهولة من النساء الأخريات بسبب حرمانه الطويل من النساء؟

بعد محاولات شتى من مئة أن تقنع خالد أن يقلع عن فكرة لعب الحديد دون جدوى رضخت للأمر، كان يواجهها، ماذا ينقصها كي تترك له بعض الوقت؟ بعض الوقت لنفسه وليس للخدمة. لم تكن مئة تفهم هذا القول أبدا! قالت إنها «موضة أمريكياني»،

وسخرت تماما من معنى الـ «Me Time» الذي راح يشرحه لها، فلو علمت النساء كيف يصنع ذلك فارقا مع الرجال لتركهنهم بمحض إرادتهن! حتى أصدقاؤه المحظوظون رواد القهوة يؤكدون له أن كل ما يريدونه هو فرصة «للتتنيح» والتفكير في لا شيء، تجادل زوجته، فربما كان ذلك وقت العزوبية، لكن بعد الزواج هناك مسؤوليات! «هو أنا بقول هتجوز عليكي؟!»، يسألها خالد بسخط! يتذكر رفاء التي تحب أن تترك وقتا من أجل معتز، يشعر أنه طبيعي وليس مجنونا كما تشير له نظرة منة، نظرة منة قادرة علي إحراقه! حين قال لها إنه سيلتحق بالنادي الرياضي لم تسأله لماذا، بل سارعت تسأل بكم هذا الاشتراك، فهو سيأخذ من قوت البيت! قال لنفسه هي عاقلة، حقها أن تخاف على بيتها، ثم تذكر بمزيد من الحنق أنه هو صاحب هذا البيت. حينما علمت أنه أجر رمزي لأن صاحبه صديق قديم التقاه في حفل نقابة الصيادلة، لم تفتت همتها، سألته كم من الوقت سيغيب وإلى متى؟ صحيح، نسي أنه لا بد أن يكون موجودا على الدوام ليلبي أي احتياج، تلك المرة لم يتنازل ككل مرة، أصرا!

سمعتة مرة يكلم المدرب الذي ينصحه بنظام غذائي ما وعرفت أنه ينوي لعب الحديد ليقوي مظهر بنيته قليلا، لامته مرارا على هذا الفكر: «جسمك مش هيتغير»، وكان يجيبها بردود لاذعة أن تهتم بجسمها هي بعد الولادة وتتركه في حاله! وبعد أن فهمت أنه لن يتخلى عن تنفيذ الفكرة صالحته: «أنا قصدت إنك عاجني كده زي مانت ورفعت أحلي حاجة فيك»، ابتسم للمديح، وكان يفهم جيدا أنه ليس غزلا وليست دعوة! ما أبهجه أنه لم يرضخ ككل مرة.

في المرة التي تكلمت فيها رفاء عن عمله في صيدلية بنوع من الإشفاق وجد نفسه يمسك موجة غضب وشيكة، صحيح أنه اقتص لنفسه كأي ذكر أرعن في أقرب مشاحنة بينهما ليربها أنها ليست على صواب كي تتعالى على أمثاله، وعاد فصالحها لأنه يعلم خير العلم أنها لا تتعالى عليه، لكنه وجد نفسه يكلم منة، ماذا لو بحث عن عمل في شركة؟ وانهمر السيل: الصيدلية هنا قريبة من البيت، أنت هنا حين أطلبك، الضغط العصبي قليل يترك من نافوخك جزء كافٍ للأولاد، ولأفلامك، وردية واحدة عدا يومين فقط، لكن ماذا ستفعل بنا الشركة؟! متى سنراك؟ وهل ستظل كما أنت أم ستلتهي بأصدقاء السوء، وصديقات السوء كما نرى في المسلسلات طوال الوقت!

رضخ لها وظل منزعجا، وربما علم في قرارة نفسه أن السبب ليس منة ورفضها، السبب أنها لا تراه كفتا لأفضل من ذلك، وهو أيضا لا يرى ذلك.

- نظرت رفاء نحو هاتفها الذي يرن ورفضت استقبال المكالمة، يوسف! تذكرها الآن وبعد كل هذا الوقت؟ ابتسمت باستهزاء وهي تقول بهمس: «كتر خير». متى هاتفته وهي تكاد تختنق؟ متى قالت وبصراحة فظيعة «محتاجالك!»، قد ترخص الأشياء مع الوقت، مَنْ كان يظن؟ لا أحد، ولا حتى هي، ظلت تظن أنها كوكبه الآخر الذي تتوقف عنده المجرة عن السباحة في فضاء الكون، ها هو يتركها دون أن يجيب استغاثاتها.
- صوتك ماله؟ فيه حاجة مضيقاكي؟
 - أنا مش مضبوطة خالص من فترة، أنا حاسة إن فيه حاجة جوايا بنتهارا!
 - معتز راجل محترم.
 - يا سلام؟ منا عارفة!
 - طب استهدي كده بالله وفهميني.
 - المنظومة كلها كده فصلاني! أنا مخنوقة قوي يا يوسف، محتاجة أتكلم معاك.

قال أنا هنا من أجلك يا رفاء، أبدا لم تكوني وحيدة! ولو كان لديك أخ ما كان سيصبح أقرب لك مني. ابن الخالة والأخ والصديق، طلب منها أن «تروق»، ذكرها برفاء التي يعرفها وهو يضغط عليها بنفس الأسلوب الحميم: «طول عمرك بتصبري.. طول عمرك بتستحملي»، ووعدها، ووعدها أنه سيظهر قريبا جدا ليكون هنا، يسمعها ويخفف عنها ما استطاع، ويتدخل إن لزم الأمر، لكن ما حدث أنه حنت بوعدة! وتابع اختفاه لشهور، والآن يطلبها؟

ساعتها تشير للثانية، وهذا يعني أن الساعة في الواقع الثانية إلا خمس دقائق، بإمكانها أن تختلس خمس دقائق لتذهب فيهم إلى سيارتها وتأخذ طريقها نحو الشارع الرئيسي قبل خروج الموظفين. لا تشعر بذنب كبير، بالفعل كانت موظفة عادية في إحدى الوحدات الصحية بأبي رواش قبل أن تترقى وتصل لمديرية الشؤون الصحية بالجيزة، وكانت أيامها تخرج بعد موعدة، وتنتظر جميع المتلكئات كي يصلن ممن تشترك معهن في برنامج المشوار اليومي! بالفعل كانت تنام في السيارة لمرات من التعب وتستيقظ على صوتهن كي تنزل أمام منزلها، وتحمد الله أنها ليست صاحبة السيارة. كان يصطف أمامها طابور يومي من الفقراء الذين يطلبون حقهم في الدواء، ويصيحون إن لم يكن متوفرا كالديوك، ولا يفهمون معنى لكلمة طابور.

كانت مفاجأة قدرية غريبة أن ترى مَنْ يطلبها على هاتفها في تلك اللحظة، «سهى» زوجة يوسف؟ يا إلهي! ضحكت وهي ترد، فهل شعرت المرأة أن زوجها كان يطلب رفاء في نفس اليوم من عدة ساعات فقط؟ بعد التحيات وتعبيرات الاشتياق والتأكيد على أنه لا بد من لقاء قريب، تقول سهى إنها بحاجة لرأيها في مأدبة كبيرة ستعدها لأنها استدعو عائلة خطيبة أخيها للغداء، هل تعد دندي مع كبيبة؟ أم فخذ عجل مع دجاج بانيه؟ وهل يصلح أن تعد سلطات بالمايونيز؟ أم لا بد من سلطات

شرقية لتلائم الجو العام؟ ماذا عن الأصناف الجانبية؟ المحاشي أم الرقائق باللحم أم كلاهما؟ أم ربما يجب وضع نوع ثالث؟ عاشت معها رفاء دقائق طويلة ممتعة، استرجعت فيها ذكرى رائعة كانت تقوم فيها بعمل المآدب. لا لسبب ولكن لأنها وحيدة وزوجها يعتبر وحيد لأن أخته الوحيدة في السعودية، فهي تقوم بدعوة خالتها المقربة وأولادها مرة، أو أهل معتز مع خالته وأولادها مرة، أو صديقتها لمرة واحدة نجحت في جلبهما. ما فائدة الدعوة والجهد إن لم يكن هناك ناس؟ وكانت تحب أن تغير أصنافها لتربهم مهارتها في الطبخ.

ابتسمت من جديد بسخرية! كانت عروسا جديدة ساذجة تريد أن تبهر الناس بشكل أساسي، من دون رغبة في شيء آخر، عليها الآن أن تفكر في الشيء الآخر.

وصلت للمنزل، جنى في قيلولتها، ألقت بها في فراشها ودخلت المطبخ لتبدأ في تجهيز الغداء، الأولاد على وصول، قذفت فجأة بالملقعة بعصبية وهي ترى بوضوح أرضية المطبخ وقد تلطخت بلون الصلصة الأحمر، أمسكت الرخام بيديها تحني عنقها، لقد نسيت أن تضع لفرح الفطائر التي ستشارك بها في الـ Fun Day! لن تغفر لها الفتاة نسيانها، تنهدت بغضب وأغمضت لحظات تسترجع فيها نفسها وتفكر في الكذبة التي قد تنقذها من مأزقها الجديد، لم تكن تنسى أيًا مما يخص البنات، ماذا حدث؟ قامت بتنظيف الأرض وجهزت الغداء وراحت تغير ملابسها، حينما سمعت صوت الفتاتان تتشاكسان في أثناء صعود السلم، تمننت لو أن أي إلغاء قد حدث، أو نسيان قد يحدث. أمطرتها فرح بنظرات نارية وقالت بتحفظ: «أنا الوحيدة في الكلاس اللي ماجبتش أكل! أنا الوحيدة اللي صحابي بقوا يزلوني عشان يأكلوني!»

كأبيها، تعرف جيدا كيف تقذف السم وبكل هدوء، وتصوغه في سلسلة لمبالغات تذيب الحجر ذنبا وطلبا للأسف، لكن رفاء تغيرت، وربما على ابنتها أن تعي ذلك. سألت الأم ابنتها في محاولة لتقليد برودها:

- والميس كانت فين؟
- يا سلام؟ يعني عادي عندك إن بنتك تكون شحاتة؟
- ولا شحاتة ولا حاجة، بلاش تقفي على هيافات.

ظلت فرح محدقة في والدتها بذهول، فهي حتى لم تعتذر أو تبدي ندما لنسيانها! وفوق كل ذلك، لا يهمها أن تكون الوحيدة التي تطلب الأكل من الباقين. ركضت على سريرها وراحت تبكي، أخبرتها فريدة، فقالت لها:

- روعي قوليلها تعالي ناكل الأول عشان إحنا جعانيين وبعدين ماما هاتصالحك.
- لم تفهم رفاء ما الذي يسعدها؟ موقف كهذا كان ليبيكيها فيما مضى، هل حقا تخلصت، أو أوشتك على التخلص من خصلة الشعور الدائم بالذنب من أي تقصير؟

في بيت رفاء كانت فتاتها الكبرى عاكفة على Mp3 خاصتها، والوسطى تشاهد الكارتون، بينما الصغيرة مع ابن دعاء يلعبان، ورضيع دعاء على حجرها. كانت رفاء تشعر بنوع من الرضا أن دعاء معترضة على أسلوب ملابسها الجديد لا تدري لماذا، راحت صديقتها تعطيها التقرير الجديد عن حالة وليدها الصحية، ترد رفاء لسانا من دون وجه وعينين: «ألف سلامة عليه، ربنا يشفيه يا رب»، لكنها تائهة في ملكوتها. تقول دعاء مداعبة فريدة أنها أصبحت كابنتها أنسة كبيرة وحلوة، تبتم الفتاة بخجل وتعود سريعا لتكمل عكوفها المحبب، فتزفر رفاء قائلة إنها أصبحت أطول منها شخصيا، أجابت دعاء:

- ما هي دي سُنَّة الحياة يا بنتي، إحنا خدنا وقتنا خلاص.
- اتكلمي عن نفسك، أنا لسا بدري على ما وقتي يخلص -نفخت- طول عمرك تحبي تكبري نفسك!
- الكبر نضج.
- أنا مجنونة وبنت مجانيين، ارتحتي؟
- يا بنتي عيشي ثقافة بلدك بقه، انتي زوجة وأم!
- يا دي نيلة وزفت! لعلمك -ابتسمت بدلال- بيعاكسوني في الشارع أكثر ما بيعاكسوها.
- مم، وده اللي بيفسر إنك بتلبسي على موضتها هي؟

رفعت رفاء حاجبيها بهدوء:

- يعني هو لبس جدتك وجدتي بتاعك ده هو اللي موضه؟ هو الأم دي مش ست؟ ولا إيه بالضبط؟

سكتت دعاء في عدم استيعاب لهذه المقاطعة العنيفة، قالت رفاء مبتسمة على مضمض:

- يا ما أمهات ومزز، احنا بس اللي هبل ومطحونين في دوامة سخيفة راكبينها بمزاجنا مش عارفة ليه؟ -كشرت دعاء الآن- أنا اكتشفت إن مش الناس اللي ظالمانا، احنا اللي ظالمين نفسنا، أو من كتر عشرتهم بقينا زيهم مش عارفة.
- بقيتي شبه داليا، المهم، أديني وصلتك فلوس الجمعية وشفتك.
- ما أنكرش إن داليا أذكانا، فهمت بدري إنها مش عاوزة تتسجن، عاشت حياتها على كيفها.
- أول مرة تقوليها! أذكانا؟ عشان كده راحت اتجوزت واحد بتعشق دباديه لكن هو بيعرف عليها كل يومين واحدة؟ انتي بتضحكي على مين؟
- أديني عكننت عليكي زي كل مرة. قالت تنهي المشاحنة.

- أنا ما عرفش أزعل منك يا رفاء، انتي حاجة تانية.
- كلامك ده بيوجعلي بطني.
- ليه بتقولي كده؟
- نفسي أفضل عند حسن ظنك، بس صعب.
- احنا أتربينا سوا!
- الناس بتتغير يا دعاء، انتي بس اللي مش حاسة، اللي اتغير حواليك قليل. «حتى يوم ما اتجوزتي، اتجوزتي قريبك»، قالت ذلك في نفسها.

قامت دعاء واقفة تستعد للذهاب. كالمعتاد أخذت الكثير من الوقت تجمع أشياءها وخرجت مودعة لتلحق وقتها لترضع الصغير.

تقول لها دعاء مالك؟ ماذا حصل لك؟ لست أدري حقيقة ماذا حصل لي، بالأمس وبعد مشاحنة جديدة صالحني معتز، لم أشعر بالفرحة لمصالحته، لم أعد أشعر بشيء أبداً، الشيء الوحيد الذي يحييني الآن هو وجود ما يخصني وحدي.

قال لها معتز متردداً إنه يفكر في عدم الذهاب مع أصدقائه لسفرة العين السخنة، اعترضت، فهو لم يسافر مع أصدقاء العمل منذ زمن، ثم إنه بحاجة لتغيير الجو، قال إنه يشعر بتغييرها نحوه، قال إنه لا يحب أن يسافر وهما على هذه الحال، لكنها أصرت. قد يكون من الحكمة أن يفترقا قليلاً، وكأنهما لا يفعلان كل ما سافر للعمل! سكت معتز ممتعضاً، يتمنى لو تخالف توقعاته، يتمنى لو ترجوه ألا يتركها، يتمنى لو تحقق معه بشأن أين سيذهب؟ وماذا سيفعل في غيابها كما اعتادت فيما سبق، لكنها بدلاً ترجوه أن يذهب! هو يريد طبعاً أن يذهب، لكنه يظل يرغب أن يرى امتعاضتها من سفره.

عن المبيت عند والدتها، قالت إنها ستفعل الليلة واحدة ثم تعود لبيتها، فهي ليست طفلة، لم يكمل التساؤل خوفاً من اشتعال مشادة أخرى، تركها كي يسافر دون أن يكونا على خلاف. على عكسه كانت بحاجة ماسة للوحدة من دونه، وجدت نفسها تكاد تحك ذراعها كمراهق حديث وتسرع في طلبه، طلب خالد، كتبت إن هناك معرض في فندق «سميراميس» بعد غد يقوم بعرض لوحات فنية لبعض الرسامين العرب الكبار، وسألته إن أحب الحضور، تردده مزقها، أخبرته إنه سيسعدها أن يأتي، فسكت لحظات قبل أن يكتب: «يسعدني اني أسعدك»، ارتدت أنفاسها الفرحة إليها وهي تخبره بالساعة. في طريق العودة لمنزل أمها تلك الليلة كانت منطلقة كطائر، وقفت عند أكثر من مكان تبتاع بعض الأشياء غير الضرورية بالمرّة! وكأنما عدم وجود معتز في القاهرة يعطيها مزيداً من الحرية والنفس، اتصلت بداليا قائلة: «عندي معاد مهم، عاوزه استلف منك حاجة».

كانت رفاء جالسة مع أمها أمام التلفاز وهي محلقة في عالمها الخاص، وبناتها الثلاث منشغلات أمامها كل بما يشغله، فوجئت به يطرق الباب، يوسف! ركضت الكبيرة لتعانقه، عاطفية للغاية مثل أمها. كانت مفاجأة عديمة الطعم؛ ليس مثل ذي قبل. وجود يوسف كان دوما مبعثا لسرورها، انفقا على كثير من الأمور منذ الطفولة، حبهما المشترك لـ Harrison Ford و Sandra Pullok، أم عشقهما الغريب لفيروز، أم لأنهما الوحيدان في العائلة اللذان يعشقان صينية الخرشوف في الفرن. حين خطبت رفاء كان يوسف في قطر، وقد هاتفته دوليا وقالت:

- مش هاينفع أتجوز من غير ما تحضر فرحي، ومش هاينفع أقلهم كده، لازم تنزل.

وقد كان، نزل يوسف لثمان وأربعين ساعة، وقاد سيارة والديه أمامهما وهو يضرب مزامير الأفراح، ورقص معها هي ومعتز، وقد نزل يوسف لمصر بعدها بعامين هربا من وحدته في قطر، وكان هذا الهروب هو من أنقذها قبل أن تفقد عقلها في دوامة الزواج الحديث ومشكلاته. ظل يوسف صديق رفاء، ظل سرها حينما يضيق بها الكون ولا تجد متنفسا إلا معه، ظل الجعبة التي تنفخ فيها غلها وخلافاتها مع معتز، يذكرها دوما أنها الأثيرة بعقلها وحكمتها لديه، ولدى أي رجل، وكان في الجوار حينما كانت تنجب طفلة وراء طفلة، وتحتاج إليه، وتجده، وقد أحبه معتز ويال العجب، رأى أن يوسف هو الأخ الحقيقي، صالح بينهما مرة، قام بحجز عشاء لهما في مركب «فرعون النيل» وفوجئت بزوجها بدلا من الأسرة وتصالحا فوق ضفاف النيل، في أثناء العودة قال معتز إنه يحب ابن خالته على فكرة. أما هي فكانت من ألبس عروسه طرحتها، وكانت من بات معها في ليلة الولادة العثرة لتوأمين! وكانت من أعد حفل العقيقة كاملا حينما كانت زوجته تعاني ما زالت من تأثير تلك الولادة.

ارتدت رفاء حجابها واستقبلته بابتسامة فاترة، دخلت والدتها مبتهجة للمطبخ تعد عصير الليمون في الخلاط مع بعض النعناع الطازج كما يحب! «اعمل حسابك العشا عندنا النهارده».

قال يوسف: «مالك يا رفاء؟»، ضحكت ضحكة عالية لا تخلو من العصبية وأجابت:

- السؤال ده بقى مقرر رسمي ولا إيه؟
- من آخر مرة اتصلت بيكي وأنا حاسس إنك متغيرة -لم ترد- أنا عارف إنني مقصر، لكن مش ذنبي وانتني عارفة.
- عارفة عارفة، سبت الشركة وفتحت مكتب خاص ومتوعك فيه، مفهوم.
- رفاء؟- نظرت له وقد تأثر من أسلوبها- انتي عندك شك إن ما يبعدينش عنكم غير الشديد القوي؟

- لا ما عنديش، ها، سهى والولاد عاملين إيه؟
- كويسين وبيسلموا عليكم، رفاء أنا زعلان، لازم تعذريني! احنا عشرة طويلة عمري ما أتأخرت فيها أو بعدت، فلما أغيب لمدة...
- سنة؟ لما تغيب لمدة سنة أعذرك؟! سنة وأنا بتعصر لوحدي وقلتلك بصراحة إن أنا بنهار! وانت كل مرة مبرر وسبب وحجة! سنة مالمقيتش فيها حد يقلي أعمل إيه ولا يدخل يصلح ويهدي زي ما بيعمل دايمًا، عمرك ما احتجتني وما لقتنيش؟ تتصل من آخر الدنيا وتقلي سهى العربية عطلت بيها على الدائري أروح لسهى، الولاد سخنوا وسهى محتاسة، أودي الولاد الدكتور، سهى عندها عزومة كبيرة ومش عارفة تسيطر، أسيب اللي ورايا واللي قدامي عشان عزومة سهى، عارف ليه؟ عشان ما ينفعش تكون محتاجني وما تلاقينيش! إنما أنا أستنى، أنا يتقالي حجج، أنا أحتاجك، ومالفاكش، وأعذرك!

سكنت وما زالت عيناها متسعتان متوترتان، ويوسف ينظر للأرض وقد احتقن جبينه، قال:

- واضح أنك مش طايقاني.. واضح أنك مش مسامحاني على ظروفي.
- أنا بعرف واحد يا يوسف!

قالت ذلك ثم انفجرت في البكاء، صدمته كانت فائقة! قال بهدوء وكأنما يريد أن يستجمع نفسه:

- عرفتيه من إمتي؟

بدموع متقطعة ونبرة تحترق أجابت:

- من أربع شهور.
- منين؟
- فيس بوك.
- ممكن تهدي؟

كانت حربة قد اخترقت ظهر يوسف واستقرت هناك دون أن يتأوه، قال:

- لازم تفهمي إن ما فيهاش حاجة أبدا تتعرفي على حد، وتفضفضي معاه شوية بكلمتين، المهم الحد ده محترم، ده لا يعني أي شيء!

استوت ملامحها المتعبة ونظرت له دون أن تفهمه، لم يكن ينظر لها، كان جالسًا في غرفة المعاقبين أمامها، ومرفقيه فوق فخذي، نظر أخيرًا نحوها وفهم حيرتها وقال:

• ما دام الواحد بص حواليه ما لقاش صديقه، مفتاح سره، وده اللي هو أنا، فأكيد ممكن يحتاج يفضفض لحد، كلنا معرضين لكده.

سكنت رفاء وكانت حواسها مشلولة، ولذلك كانت تجيبه بشكل ميكانيكي، حينما سأل:

- انتو بتتكلموا كل قد إيه؟
- كل يوم.
- كام مرة؟
- أربعة أو خمسة.

مضغ ضروسه دون أن ترى:

- اتقابلتوا؟
- أيوه.
- كام مرة؟
- كذا مرة!
- ممكن توقفي المقابلات دي، وتقللي مرات الكلام، مرتين تلاتة في الأسبوع كفاية.
- وبعدين؟
- وأنا أوعدك، أوعدك إني هاكون متواجد في أي وقت تحتاجيني فيه.

نظرت إليه وفي عينيها دموع، مسحتها سريعا بدخول أمها، لكن والدتها قالت: «أنا خارجة على طول». لم يعلق أحدهما، فوضعت العصير وخرجت كما دخلت.

- الموضوع أكبر من كده يا يوسف.
- مش رفاء اللي تربط نفسها وحياتها بواحد غريب، وتسيب الموضوع يكبر.

ابتعدت الوالدة وهي واقفة تتأكد أنها لن تسمع شيئا من حديثهما المضغوم، المفهوم دائما وأبدا منهما فقط!

تنهدت بعمق، لم يستطع أحد أن يتصرف حيال رفاء ويوسف، منذ الطفولة، هناك أشياء علمها الجميع، وتجاهلها الجميع عمدا، فأخوه إسماعيل مثال حي يتحرك بينهم، ويذكر الكل بغلطة والديه. وُلد إسماعيل ببقعة كبيرة على وجهه مكسوة بزغب يشبه شعر الماعز، السبب زواج الأقارب، كانا طفلين حينما راحا يسألان عن ما يشوه وجه إسماعيل؟ لكنها كانت صدمة حفرت في جوف كليهما نفقا غابرا لا يقرباه أبدا.

لم تعرف الوالدة أبدا إن كانا قد اتفقا ضمينا على أن يمنعا سيل ما يجري بينهما عنوة، أم أنهما تواجهها واتفقا أن كلا منهما ليس حملا أبدا لمواجهة طفل بمصير إسماعيل. كم قالت رفاء لوالدتها لو أنه حرق لكان أهون! كم قالت «خالتو هاتروح النار!». وها هما يكبران ويتزوج كلاهما، وينجبان، وما زال على انسجام تام ليس لأحد عليه بسطان.

بعد يومين من لقاء يوسف، كانت لدى رفاء قدرة «مش بطالة» على التوقف عن الحديث مع خالد. لكن في اليوم الثالث، وحينما تأخر عنها، أصابها جنون! متى أصبح السبب المباشر لكونها تحتمل الحياة؟ لا تدري. في المساء كانت تتحرك بين أرجاء البيت وهي تغلي، معتز الذي يصرح ليل نهار دون ذرة ملح في العين أنه «مش قادر وتعبان ومرهق جدا»، سمعها تقول «أه» فوقف يحاسبها، ماذا جرى لها كي تتأوه؟ سألته لماذا تتركه هي يعبر عن آلامه ليل نهار بحرية، بعكسه؟

- بتقارني نفسك بيا ليه؟ كل واحد فينا ليه ظروف، انتي واحدة بترجعي تصلي الظهر في بيتك وأنا بصلي المغرب في المكتب!
- ما تهمنيش التفاصيل، ليه تدي نفسك حق ماتديهونيش؟ ليه تعبّر وعاوزني أخرس!

لم يكن يعرف الإجابة ليجيبها، ابن أمه تعود على النواح وسماع التدليل وتلقي الطبطبة، لكن أحدا لم يقل له أن يتحمل نواح الآخرين بالمثل!

بكل جراءة ذهبت نحو صيدليته، في الطابق الأرضي الهادي، دخلت مبتسمة تجتاز دهشة زميله منادية «أزيك يا دكتور خالد»، وسألته عن دواء من وحي خيالها وهي تقول إنهم -قالوا لها- إنه هنا، تحرك خالد قائلا إنه سيبحث في الأدراج، ظلت مبتسمة وهو يبعثر، وهي تسأله عن زيوت مقوية للشعر وخلافه حتى خرج زميله يدخن، قالت بحدة:

- مش بترد ليه؟
- أبدا، حسيتك بتحاولي تقلقي، قلت أساعدك.
- آخر مرة تتصرف فيها بالشكل ده معايا، أنا أتأخر انت ما تتأخرش!

قالت رفاء بعصبية، نظرتة المستنكرة وطلبه «وطي صوتك» أعادها لصوابها، قالت بارتباك:

- من فضلك ما تعملش كده تاني، أنا بيكون عندي ظروف.
- أنا مش عاوز أتقل عليكي.

- ما تقولش كده!
- طب لازم تمشي، الوقت متأخر.
- لا مش لازم! يولعوا كلهم بجازا!

سكت متنهدا متأزما، أو هذا ما رأيته، قال لها: كده مش صح.

- ما يهمني! ما يهمني!
- يهمني أنا -نظر لها هنا- إنتي مسئوليتي، مش لازم تفهمي، لكن من واجبي أحافظ عليك.
- واجبك؟
- واجبي وسعادتي في الدنيا المقرفة دي.

هدأ خاطرها، واستجابت له أخيرا وخرجت. عادت المرأة تتنفس بهدوء بال من جديد بعد أن عاد خالد ليرد عليها باهتمام أولا بأول. قد أدركت شيئا أفزعها، ومع ذلك فقد تركته في بواطن هذا الإدراك دون أن تقربه، لقد أدمنته دون ريب.

(لهفتها عليّ تذهب عقلي! أسأل نفسي كثيرا هل حقا تحبني؟ لا أذكر أنني مخلوق يُحب! منذ الصغر يقولون إنني عادي بدرجة مملّة، «مالوش طلة»، حتى في الطفولة كنت سهل المراس، كان لأخي وأختي قصص، صولات في الحب والهجر والغضب والبهجة، لم أكن مثلهما، أحب إحداهن في صمت، وأتركها من بعيد، لا قصص عندي ولا حواديت.

أنفجر على هاشم وأمثاله وأسأل نفسي هل سيكون لي يوما دور كأدوارهم؟ أي دور! في أقصى أحلامي لم أتخيل أن يكون بانتظاري دور الحبيب، دور بعيد كل البعد عن آمالي. دور المحب اعتيادي لي ولغيري، نحن الرجال نحب على أنفسنا طوال الوقت، المهم من سيلقى حبه القبول؟ الذكور كثيرة تتطاحن، والقطة تقف متفرجة، قد يهزم الجميع قط لا يعجبها فتتركه في النهاية! لذلك فالمهم فيمن سيلقى القبول؟

حين تزوجتُ منة كنت كطائر، شهر العسل والشهرين اللاحقين كانا رائعين، فترة زائفة تضل الرجل عن الفخ الذي أدخل نفسه فيه وبيديه! أسأل أخي أين ذهب الحب؟ لكنه لا يعرف كي يدلني، هرب من مسؤولياته بفرصة عمل في دبي، أقول له إن أصدقاءه الهنود ليسوا بخير بديل، أقول له إن أشهر الصيف الثلاثة بمثابة جهنم على الأرض في دبي، لكنه يقول إن جهنم الحقيقية في الروتين! يقول لي إنني أوفر حظًا، أستمتع بالرسم وأحب السينما، أشياء تكسر الروتين لكنه خلق بلا موهبة، ولا

صبر له على بكاء واستغاثات لأسباب مختلفة لا تنتهي، أصاب. حين سمعت بخبر الحمل الأول طرت من الفرحة، نَعَص سعادتنا بقاءها ممددة طوال أشهر الحمل تقريبا على ظهرها، أنا الطاهي والمنظف والمراعي وكل شيء، لا يهم، فرحة الطفل الجديد تنسيني، لكني لم أفطن أنه كان الأحرى بي أن أودع زوجتي وداعا تاما غير منقوص! فلم أعد أجدها أو أراها من لحظة الولادة، الجميع كذلك؟ لا ليس الجميع كذلك. في خبر الحمل الثاني لم يكن قلبي سعيدا ولم أفهم، ثم ازداد توتري من الاستيقاظ، مرض نفسي غريب لم يتكلم عنه الأطباء، لا أريد أن أستيقظ! أستيقظ لماذا ولمن؟ ثم ظهر شعاع، شعاع يضيء ظلمة حياتي.

معان جديدة للأنوثة تكشفت لي بدخولها حياتي، أظافر المرأة مثلا، العروق الظاهرة في كفها الشفافين، خط الكحل في عينيها، إتقانه الشديد كأنها ملكة من الفراعين، أحذيتها! تحبها لامعة ذات كعوب، لا توجد في بيتنا! تستحق الرسم في لوحة تلك الأحذية، وغضبها الطفولي المصاحب لملامحها الناضجة أيضا يستحق الرسم، تأتي حدي أنا الرجل العادي لأقصى درجة، وتنتظر تعليقاتي وتصحيحاتي، وتفقد صوابها إذا ما خاصمتها. خاصمت مئة من يومين فقالت لي «اتفلق»، وليس هذا ما أغضبني فعادة ما تقذفني بكلمات تقذفها للولدين، ما أغضبني أنها قدرت على بُعدي لثلاثة أيام بلياليها، أيقظتني مرة لأني نمت على سرير ابني الكبير وقد جاء موعد نومه، وربما نسيت أننا على شجار أصلا.

كتبت لي مرة عن كاظم الساهر، شرحت لها، من الصعب للغاية أن يحب الرجال هذا الوله العابد، كانت ترسل لي بروابط لأغانيه، سمعت واحدة كي أرضيها، علقت في ذهني جملة بصوته القليل أسمعها غصبا كلما لاحت صورتها بذهني «يحبها حقدني ويا طالما وددت إن طوقتها وقتلها». كانت علاجي، فقد أصبحت أنتظر أن أستيقظ لتراسلني).

ضغط زر الحفظ ونظر للوقت الذي تجاوز منتصف الليل بساعة راضيا.

بعد عودة معزز وانهماك كليهما في عالمه، حادثها في أحد الليالي عارضا سفرة صغيرة للإسكندرية بصحبة الأولاد، لكنها قالت ببرود:

- فرح عندها حفلة يوم الحد وهانقعد نراجع الاسكريبت بتاعها.

اهتز معزز من ردها، إنها عاشقة للإسكندرية صيف شتاء! إنه كان طلبها الوحيد له في خلال السنة المنصرمة، ماذا حدث؟ عرض عليها أن يؤجلاها للجمعة التي تليها إذن، بنفس البرود أشارت أن الحوار إذن سابق لأوانه، سأل مندهشا ماذا حدث؟ كانت

- تتمنى هذه السفرة، نفخت من إصراره وأوضحت أنها لم تعد تتمنى شيئاً! ألا يسعده ذلك؟ لا أمانى ولا متطلبات.
- ده على أساس أني ما عملتش حجات كتير تسعدك طول حياتنا؟ كنتي أعقل من كده.
 - إيه تعريف العقل بالنسبة لك؟

لم يجيبها معتز، كان مشلولاً مذهولاً، ليس هذا الكلام هينا، ليست هذه زوجته! وكانت أول مرة يقرر أنه يريد النزول من البيت.

كانت فتاة لطيفة المعشر، ربما ليست ملفتة لمن سواه، لكنه أحب احترام وجهها للابتسام. أمه الرائعة أيضاً انجذبت لخصال خاصة تراها بفطنتها أهلاً للاختيار، فعدا اسمها الغريب غير المألوف كل شيء مرغوب،، وحيدة، لا أخوات ينغصن عليه، دون أب يصفي دم عروقه متطلباً، طيبة الأم، وفوق كل ذلك تعمل في قطاع عام، لن تقول له «كياني» وهذا الكلام الفارغ، فأمه مدربة للبيانو في المركز الدولي للموسيقى بمصر الجديدة، أي هواية، وهي تعرف أنها ستترك العمل في الثانية ظهراً يومياً، وهو ما سيتوافق مع متطلبات منزلها.

تذكر هنا بمزيد من القلق مشاحتتهما منذ سبعة أشهر ربما.

- عاوزة اشتغل في قطاع خاص يا معتز.
- ليه؟ إيه اللي جد؟ ما كنا كويسين؟
- مين اللي كويسين؟ إنت؟ البيت؟ بكلمك عني أنا!
- انتي زي الفل، ومالية مركز.
- مركزي؟ أنا بقعد من الصبح مابعملش أي حاجة، مابتعلمش حاجة، مابافدش حد.
- إيه الجديد؟ من سنين واحنا كده وكتر خير الدنيا إن مافيش إرهاب بدني وذهني عليك.
- ثاني؟ إرهاب بدني وذهني عشان أرجع البيت كويسة وأتابع مع الولاد ومعاك؟
- كل الستات يتمنوا مكانك، مركز من غير تعب.
- أنا زهقت! أنا عاوزة أتشغل بجد يا معتز؛ أنا هايجيلي اكتئاب، اللي ببات فيه بصبح فيه، الناس بيعدوا عليه ويمشوا وأنا في مكاني، صدقني، أنا محتاجة أغير مكان شغلي، محتاجة أغير الخلق اللي باشوفها.
- تفتكري هاتلاقي قطاع خاص يقبلك؟ مصنع أدوية ولا شركة منتجات تجميل؟
- عارفة، فكرت في الحكاية دي، مش مهم، أشتغل كإني مبتدئة ماعنديش مانع، بس أحس إنني بعمل حاجة لنفسني، معتز، أنا حاسة الاكتئاب بيدور حواليا صدقني، أنا تعبانة.

توقف عند كشك السجائر، اشترى العلبه بعد تردد، لقد أقلع، وسوف يعود، لا لن يعود، مجرد إخراج للضغط، ولو عاد، فهو ذنبها لا ذنبه. دخل سيارته وأشعل سيجارته، ومع أول دخان انبعث من فمه تذكر لقاء دار أيام خطبتهما، أمام «كوك دور»، كان واقفا في انتظار الطلبات، وكانت أول مرة يخرجان وحدهما؛ لأن بعد يومين سيتم كتب الكتاب، وحينما عاد قالت بنفس الابتسامه إنها يجب أن تصارحه بشيء قبل أن يتم القران، ارتخت مفاصله، في عينيها انطفاءة أقلقته، سأل متقطع الأنفاس مكفهر الوجه: «خير؟» فقالت ببراءة إنها تعاني من الربو!

«نعم؟»، هذا ما أراد قوله، كاد يرمي بالسندويتشات من يديه، اشتبك مع ابتسامه لتعلو وجهه، ووجد نفسه يقول: «سلامتك»، فتابعت -ويا للعجب- مبتسمة أنها متعايشة مع هذا المرض من زمان، وتتحسن والحمد لله لكن ببطء، المشكلة أنها لو تزوجت من مدخن؛ فلن تشفى أبدا.

لن ينسى كيف شعر حينما دخل السيارة بعد أن أطفأ سيجارته وأعطاه سندويتشاته، لم يتذوق إلا القليل، ثم عبّر عن توقعه بكذب مفضوح، ثم أعادها وعاد لبيته وهو يفكر في تلك المصيبة! أخبر أمه ووقع عليها الخبر كالكارثة، لم ينم إلا قليلا، ثم استيقظ في الصباح مدركا لمصيبة أكبر حجما، كتب الكتاب والمعازيم؟!

لم يجب هاتفها في الصباح، وبعد ساعة لم يقل سوى كلمات مبهمات، وراح لأمه يشكو، ما هذا الحظ، يكفي ما مر به من خطوبات، متى سيتزوج إذن؟ وهل سيبحثان من البداية ومن جديد على عروس مناسبة؟ ماذا عن الشبكة؟ ضحكت أمه، ألم يعرف بعد أنها كانت تمثيلية؟ ألم يفهم الغافل مكر الفتيات؟ في نفس الليلة وداخل شرفة بيتها عاتبها على تلك التمثيلية فقد كان يمكن أن تخسره، بهدوء سألته ولماذا لم تخسره؟ داس على ضروره، يجب أن ينجح فيما قالت أمه، قال إن ذلك ما كان سيحدث حتما، لكن والدته أسرعت تستفسر من والدتها وهي تعلم الباقي، لكنها قالت: «آدي احنا فيها!»، حينما تنطفئ ابتسامتها يتمغص! قال: «أصل أنا طلعت عيل وحييتك».

ابتسمت هنا مضمومة الشفاه دون أن تنظر إليه، وكانت منابت شعرها تلمع حول جبهتها، هل علمت أنه إنما يتحدث والسلام؟ سمعها تقول:

• طب وعيل ليه؟ كل ده عشان خايفة على صحتك ومستقبلنا! تخيل لو بنتك لا قدر الله جاتلها الحساسيه دي فعلا من سجايرك، شفت عريسها كان هايفكر إزاي؟

لمس ذراعها بكوعه سريعا وهو يهمس:

• ده في حالة لو ما طلعتش سكر زي مامتها ووقعته كده زي.

هاله تخضبها ولم يكن مشهدا متكررا، قالت:

- يعني في الآخر هاتبطل ولا لأ؟
- لأ طبعا!

تركت يديها السور ونظرت له مستوية الملامح، فقال هامسا:

- لو ادتيني بوسة أفكر..

ضحكت وقتها وقالت:

- شكلي مخطوبة لعيل فعلا!

لم يعرف معتز أبدا أنها بكت ذلك الصباح، قالت لأمها لماذا فعلت ذلك؟ فأجابت الأم بشكل قاطع أنها لن تضحى بسمعتها بعد إعلان موعد كتب الكتاب! ثم إنها زيجة ليس سهلا أن تجد مثلها مرة أخرى، «خُفت يطير بسبب هبلك، إحنا فعرض يوم، ما عندناش حدا! ما لناش ظهرا!»، قول الأم أبكاها أكثر، لكنه على كل حال جعلها تستمر.

انطلق معتز في سيارته الـ Elantra الرمادية الجديدة، متمنيا لو أن بإمكانه الضغط على زر ما ليبحث جيدا فيما عليه تذكره، لا فيما يرغب تذكره. كان يوما أسودا ذلك الذي فكرت فيه ترك المجال الحكومي، من أين جاءت بهذه الفكرة لم يدر أبدا؟ بل السؤال، من أين جاء هو بكل هذه المثابرة وهذا الإصرار؟ يذكر جيدا هذا الفزع الذي أصابه ليلتها، بيته الهادئ المستقر، من أوقد فتننته؟ لعن الله من أوقدها.

- ويا ترى فكرتي في حياتنا إحنا هاتبقى إزاي بعد ما تقلبيها القلبة دي؟ القطاع الخاص ده ظروفه إيه؟ مواعيده إيه؟ أديكي شايفاني حالتني عاملة إزاي مش ملك نفسي!
- بس أنا راجل، فاتح بيت، إنتي ست ووراكي مسئوليات.
- بسيطة يا معتز، أدور على شغلانة تكون بتخلص أربعة، زي دعاء كده قبل ما تقعد في البيت.

- إنتي عاوزه تنفيذي اللي في دماغك وخلص!

- أنا بحاول أسد الثغرات اللي ممكن تتعبك.

- تغييرك ده كله هاتتعبني.

- وحالي كده تاعبني، ساعدني أرجوك!

- هو حد لاقى شغل أصلا؟ وهاتعملي إيه في ولادك؟ طبعا هاتدفعي انتي كل أقساط عربيتك!

سكتت برهة:

- خد مرتبي كله وسيبني أغيرا!
- فكري كويس في اللي بتقوليه! عارفة لو اتأخرتي عن معادك لأي سبب، ولا حسيت إن فيه إهمال في البيت؟ ولا مستوى الولاد الدراسي نزل؛ مش هاسكت!
- ده تهديد؟
- لازم تكوني قد مسئولية عاوزة تشيلها لنفسك! وانسي طبعاً خروجائك بقى يا دوب هانشوفك.
- كفاية!
- مش كفاية، فيه بيوت بتتخرب من عملة زي دي.

ظلت علي خصام، وهو يقلب الجمر بيد ترتعش، وكم حمد ربه حينما غيض الجنون. هل كان أحمقا إذ ظن ذلك إذن؟ سعى فص من دماغ معتز يبحث ليجد طريقه نحو صفحات الذاكرة، ليسترجعها، عرس صديقه القديم الذي رفض تلبية دعوته، مجرد صديق لا يتفق معه كثيرا انقطعت علاقتهما من بعد زواج معتز، ثم إنه فكر في الزواج الآن ومن فتاة عشرينية صغيرة ولم يكن ذلك مستساغا منه، لكنه كان مستساغا لزوجته التي تلح على الذهاب للحفل وإعادة العلاقات مع الصديق! قالت ألا مشكلة لديها في الاندماج مع أي أحد فليس عليه حمل همها هي والزوجة الجديدة.

- مش فاهم انتي مصرة ليه على واحد ما شفتيهوش غير كام مرة منهم فرحنا؟ وبعدين هاتندمجي معاهم إزاي؟ -ضحك- دي قد بنتك!

استعرت من الغضب، وهاجت كما لم ير من قبل، قال إنه يضاحكها، فردت أن اللفظ سعدا تابع:

- كل ده ليه؟ مانتني عجرتي فعلا.
- عاوز تعرف مين اللي عجوز فينا؟ اللي بينام كل يوم من عشرة بليل وينزل من البيت كل ويك إند بعد العصر عشان الحر، ده اللي عجوز! اللي بطل يسافر يتفصح وبطل يحب يشوف الدنيا عشان يفضل في حضان القممم بتاعه، ده اللي عجوز! اللي راضي بعشرة العجزة اللي هم أهله بس ويببعد عن كل الشباب اللي حوآليه ده اللي فعلا عجوز!

للمرة الثانية في أقل من شهر، يستمر الخصام، يومين تقدر بقوة من أين أوتيتها على تركه دون كلمة، أصبحت ضيقة المزاج، وهي أولى علامات كره الرجل للعودة إلى بيته! منذ أن أخذ موقعا متميزا في عمله تغيرت أشياء كثيرة. زادت أسفاره خارج القاهرة، وزاد إنهاكه وبدأ تذررها.

أليست مع الوقت بدأت تتكيف وكف تذررها والحمد لله؟ هل مات هذا التذمر، أم كان ساكنا كبركان؟ مهلا، مهلا، مهلا! كل الأزواج هكذا! بل وربما من دون حتى عائد،

هل الجحود خصلة بشرية إذن؟

توقف تحت البيت، نظر داخل سيارتها وهو يلف حولها، لمح كتباً لعينة عن السينما على الكنب الخلفية، يظهر غلاف عنوانه عن سينما الثمانينيات عليه صورة سيمون. سمع ضحكها في أذنه، كانت تضحك كثيراً قبل مجيء جنى، أجل قبل جنى، وكانت تحب إقباله عليها، تحولت لجنّة ناعمة، لا ترده لكنها لا تشده، لم تعد تشده بعد الطفل الثالث، تذكر الآن آخر لقاء، قالتها بشيء من العصبية وليس من الرغبة «يلا يا معتز!».

اخترقت سمعه كلمات طبيب الأسنان الذي اشترك له خصيصاً على حدّ قوله بقناة «ميلودي»، هو من ينتظر داخل العيادة بملل قال: «عاوزين نروق ونتدلّع»، شعر الآن أنه يكثر من مشاهدة الكليبات. تذكر حينما فوجئ بوسادة تُلقى بعنف على وجهه، كان وحيداً مع التلفاز، رفاء بالداخل مع والدتها تعدان العشاء، بعدما انتفض غاضباً انكمش أمام عبستها المستوية وهي تقول:

- عندك بيت، ابقى اعمل اللي انت عاوزه هناك!

وضع الوسادة فوقه وقد تراجع مخذولاً ولم يعقب، مهلاً، كان ذلك من وقت طويل! كان شاباً طائشاً ليس من النضج بعد، بالتأكيد نسيت هذا الحدث.

لم يعرف معتز أشياء كثيرة حدثت بعد جنى مباشرة،، كانت زوجته تفكر بسخط: يتذمرون من الزوجة التي تهمل نفسها، من يتركها تعتني بنفسها أفهموني؟ بعد الصابون المقشر مررت على جلدها ملح الصويا المنعم، ثم ختمت بصابون كريمي، اغتسلت بشغف ثم راحت تنشف شعرها، دهنته أولاً ثم فردته بمعطر الشعر الذي ابتاعته، ثم لبست البرنس وخرجت، لا تزال كانت في سكرة البخار الرطب على جسدها وشعرها حينما سمعت معتز يزمجر سائلاً عن الوقت الطويل الذي غابت فيه داخل الحمام؟

- نعم يا سي معتز! البنات وناموا، وانت ومتعشي وعلى سريرك، ماخودش راحتي ليه؟

كانت تنوي الآن الدخول في طقوس دهان بشرتها بالكريمات المنعشة، لن تفعل ذلك بالتأكيد كي تهرب من مزيد من التقريع، نفخت وأخذت كريماتها تحت إبطها متجهة لغرفة البنات، حينما دخلت في الظلمة وراحت ترفع ساق وراء ساق على طرف سرير فريدة لم تشعر بالانتشاء الذي دوما ما شعرت به أثناء ذلك، بل داهمتها زمجرة معتز.

عادت للغرفة، أخرجت پيچامتها ودخلت مرة أخرى للحمام، خرجت مرتخية مستعدة للنوم، ثم تسحبت تحت الغطاء، سمعته:

- إنتي بتلبسي دايماً في الحمام ليه؟

صدمها السؤال! ارتبكت، تلعثمت، قالت:

- أنت حالف ما تتخانق معايا يا معتز؟
- مش بتخانق والله، بس مستغرب.
- مستغرب بعد عشر سنين؟
- مش ملاحظة أنك بقيتي علطول بتردى بعصبية؟

هكذا هو، يستنزفها، بشكل تراكمي يفعل، ثم ببساطة شديدة ينقلب ملاكا ويقلبها معه لشيطان، مع يسر أكثر في الفعل الثاني! قالت «تصبح على خير»، وتدفرت جيدا ونامت.

لا يعرف معتز كل ذلك لكنه يعي جيدا كلام أمه، قالت أمه مرة أن الحمل المتكرر يفسد الجسم ويجعل المرأة كارهة للقاء كي لا ترى ما حدث لها في عين زوجها، لكنه لم يجرحها بهذا الخصوص من قبل، العلامات يخفيها الظلام على أي حال.

عنوة سمع صوتها:

- بص حواليك، احنا بنشوف مين؟
- لعلمك، الاختلاط بالناس مش حاجة حلوة زي ما بيحبوا في الأفلام، ده كله مشكلات وقرف وحسد وخيانة وبلاوي ملهاش آخر! لكن إحنا ربنا مراضينا بالستر، إحنا في نعمة كبيرة يا رفاء، بلاش نتنكر لها لحسن يحرمننا منها!

يتذكر شكلها جيدا، عبستها ليست كعبسة النساء، ليست حاجبين معقودين، أو موجين. أو عينين ضيقتين تنضحان اشمئززا، في الواقع هي أصعب! عبستها هي توحد تام مع لا شيء، موت للملامح، حذف تام لأي تعبير ممكن، وعينان انطفا لمعانها. فرح لسكوتهما، في كل جدال لم يكن ينتظر سوى أن تسكت! أن تسكت يعني أنها ستتنازل، يعني أن ما يريد هو ما سيكون، ببساطة كل ذلك يعني أنه نجح.

أو هكذا هو ظن...

«أخبارك إيه؟»

صوته أسود وهو يسألها، تعرفه جيدا جدا حينما يكون غاضبا، أم أنها يغضب؟ ولم نوع من قلب الطاولة! سألت رفاء يوسف تضحك: هل تضامنا معها؟ أم هروب من المسؤولية؟ كرر الكلمة «هروب؟»، اسودت جبهته، إذن فالسيل قريب، سيل العرم،

والجميل أنها لا تهتم! جاء الساعي بفنجال القهوة وسكت كلاهما حتى خرج، تركت لها شهيرة المكتب لجمع فلوس الجمعية والحمد لله، أما المكتب الثالث الذي ذهب صاحبه ولم يأت أحد بعده لملئه، فنعمة تمنيان أن تستمر. ذكرت أنها المرة الأولى التي يزورها فيها في مكتبها، فسألها إن كانت تعاقبه لذلك؟ لكنها تنفي بهدوء، فكل يعرف نفسه! شيء مدجج في أسلوب حديثها يشكك دون رحمة! قال:

- ما سألتينيش عن سهى؟

قال ذلك مغيرا المسار، لقد اكتشف يوسف أنه ما كان ليسامحها! اكتشف أنه يتمنى لو يذبحها ويدفنها كما يُدفن العار في الصعيد، أجل، وتتصفي دماؤها هناك تحت الرمال، ربما ينز منها الإثم، أجل هو إثم! وفي عرفه أي فكرة أو ذرة لعاطفة خارج مكانها هي إثم! لا جدال في المسلمات. ثم وجد نفسه وقد بدأ يفرغ طاقة الغدر في زوجته! «كنتي بتكلمي مين كل ده؟ كنتو بتقولوا إيه؟ بتبتسمي على إيه؟ إنتي افتكرتي حاجة خلتك تبتسمي، إيه هي؟».

قطعته من شروده تسأل عن سهى، وتسمعه يخبرها عن شيء غريب يحدث لها من نوم متواصل دون انقطاع! لا الأطباء عرفوا ولا التحاليل تخبرهم بشيء محدد! لا أحد يعرف ما الحكاية؟

- أنا عارفة!

دق قلبه بهدوء لا يفضحه، كم وقف قلبه وقفة رجولية معه؟ نظر لها مستفسرا متحفزا لردّها، هل تعرف شيئا؟ هل حدث شيء؟ هل هو الإثم هي الأخرى؟

- نَفْسي، كل ده نفسي يا يوسف، كل ست بتلاقي طريقة تهرب بيها، وعشان مراتك ست طيبة، لاقت إن أسلم هروب هو النوم.
- بلاش يا رفاء.

- عاجبك يعني الحالة اللي هي فيها دي؟ ما تبطل أنانية وتفكر فيها؟

- إنتي هاتقلبي عليا؟ هو لازم نكون إحنا الغلطانيين؟

- القضية مش غلطان ومغلوط فيه يا يوسف، كلنا مغلوط فينا، مش وقته دلوقت، القضية نعمل إيه عشان نقلل حجم الغلط ونعيش أسعد؟

- وانتى عندك الحل؟

- قلتها لك وهاقولها لك تاني، لازم سهى تعمل حاجة لنفسها، أي حاجة! لازم في وسط انشغالاتها العظيمة بيكم يكون في جزء بتنشغل فيه بيها هيه، ساعة مقدسة كلكم تحترمونها غصب عنكم لأنها معاد يخصها! فكر في كلامي، مش يمكن،، مش يمكن يكون عندي حق؟

- انتي لسا بتكلمي الشخص التاني؟

• أيوه! يوميا!

تعترف بين يديه دون مقاومة كسابق عهدا، قال:

- واللي اتفقنا عليه؟
- ما قدرتش أعمله! لا انت قدرت ولا انا قدرت، وبصراحة أنا مبسوطه، ليه المفروض أقدر؟ ليه لازم أقاوم حاجة بتسعدني؟ عشان غلط؟ ياما بنغلط من غير ما نسعد نفسنا! وما تطلبش مني الطلب ده تاني عشان مش هوافق عليه أصلا! هاكلمه، وهاروح معاه معارض وندوات، وهاعيش حياتي اللي راحت فجأة مش عارفة فإيه؟ البنات؟ البيت؟ معتز؟ طب وأنا؟! المفروض انبسط قوي إن وظيفتي في الحياة هي خدمة كل دول! لا شكرا، مابقتش عايزة الوظيفة دي تاني.

قال بتأثر واضح:

- انتي اتغيرتي قوي يا رفاء.
- ده اللي قاعدة أفهمهولك من زمان وأنت مش راضي تفهم! أنا اتغيرت! اتغيرت وما بقتش رفاء اللي انت تعرفها!
- لا إنتي رفاء اللي أنا أعرفها! اسكتي! ماتكلميش هبل!
- ده مش هبل، حاسب، حاسب يا يوسف، عشان أنا دلوقتي بغير جلدي، بطلع بره شرنقتي، واللي هايمد صباعه، هايتلدغ!

سكت يوسف وهو يمنع بمجهود أن تسمع أو تشعر بصوت أنفاسه، ثم قال:

- اللي بينا طول عمره نضيف -ولت وجهها بعيدا- لو ليا في قلبك معزة، وغلاوة صحيح، تقطعي علاقتك بالشخص ده.
- أسفة! اطلب مني حاجة أقدر أعملها.
- انتي فاكرة إنني مامرتش بحجات زي دي؟ مريت يا رفاء! كنت برمي كل حاجة ورا ضهري! كنت بقاوم، مش أسيب نفسي للتيار! شوية ذكر ودعاء، ننسى كل اللي مش بنقدر عليه.
- حاولت! -نزل الخطان أخيرا على خديها- حاولت كتيرا! -همسها مرّقه- بقيت أقول يا رب ثبتني! يا رب ثبتني! بس حقيقي مش قادرة!
- هايثبتك بس الصبر!
- مش قادرة اصبر ومش عارفة أقاوم، ومش عاوزة!
- إنتي روحتيه البيت؟

مسحت دموعها بعصبية ونظرت لوجهه المكمود وقالت:

- أنت اتجننت؟
- أومال إيه؟ إيه التعلق الفجائي الغريب ده!
- ده أنا قلت ما حدش غيرك هايفهمني! تقوم تقول كده؟ صدقني هو شخص محترم.
- مافيش راجل محترم يسمح لنفسه يدخل حياة واحدة متجوزة! اللي يشغل زوجة ده شخص عنده خلل!
- عمره ما طلب مني حاجة.
- وانا هستنى لما يطلب؟!

نظرت بعيدا من جديد، مسح وجهه متوترا وتهد ثم قال:

- قالك بحبك؟
- لأ!

«تأتأ» بنفاد صبر، يعرف أنها لا يمكن أن تكذب عليه، قالت:

- افهمني، مش مهم الاسم، أنا بحب أكون معاه، بينا كلام كتير نقوله، بينا حاجات مشتركة بتفرحني!
- رفاء، أنا عاوز أقابله.

كم بدا كلامه أحمقا، كم بدى في منتهى السخف! كانت على حق لترفض طلبه، فماذا سيقول له؟ راح يتلعثم بكلام مبهم لم ينطق فيه شيئا من الحقيقة، والتي تتلخص في «عاوز أشوف شكله إيه؟».

«ترى هل تذكر؟»، سأل نفسه من خلف عجلة القيادة والتعرق يغزو أصابعه، ضربات قلبه تزداد، ضغط دمه الذي ينخفض بسهولة عند توتره داء قديم.

وعى على دنياه وهي فتاته، يبحث لها عن قطة صغيرة بعد أن طردت والدتها قطتها، يغسلها في مياه أحد الحدائق أمامها وهي تضحك مشرقة، يشتري لها اللبن كي تستمتع بإطعامها. القطة كانت شيئا كبيرا لم يفهمه أي من والديها، كانت الونيس الذي حرمت منه في غرفتها المظلمة، الخالية من أي أخ أو أخت. كبرت القطة أمامهما وشيء معها يكبر بينهما. حينما اكتشف أمره لم يحزن، لم يحزن من رد فعل والده العنيف، بل أحزنه رجولته أمامها، أي رجل هذا الذي يعنفه أبوه؟ لم يشعر بنفسه إلا وهو يرد صارخا بعد طول سكوت، أخذ صفعه كانت الأولى ولم يهتز! «اقتلني أو اذبحني لكن لا تهز صورتني في عينيها»، وكانت مفاجأة إذ لم تغضب رفاء من فقد

القطعة، كانا في ذات السطح، جالسين على المسند الخشبي القديم، قال: «كانت روحك فيها»، فقالت فوراً: «روحي فيك إنت»، قالت ذلك وقبّلت خدّه ونزلت من جواره وذهبت.

وكان يوماً فاصلاً في حياته لن ينساه؛ لأنه شعر في هذه اللحظة أنه كبير. ظل جالسا في مكانه، يحدق في النجوم وابتسامة واسعة تملأ قلبه وشفتيه معا، قال لنفسه جملة واحدة، ظل مستيقظاً على إثرها طوال الليل، «بحب رفاء».

لكن وقف هناك سد، رغم ما راح يكبر في القلوب، ظل السد، إسماعيل! كان يكبر حبهما، وتكبر معه وحمة إسماعيل الملعونة، تفاهما ضمنيا، دون بوح، كلا! كلا لن ينجبا مزيدا من التعساء لهذه الأرض، كلا لن يتعلقا بالحب، ويتزوجا بدماء العائلة الواحدة التي تحمل هذا الداء الوراثي الملعون. فهل صمدا؟

صمدا وهو العارف، صمد وصمدت طويلا فيما يفوق الاحتمال. في مصيف أحد الأضياف اهتز الصمود، ويال الغرابة إذ تضاعف جمالها بمجرد أن دخلت الجامعة، لم يكن رأيه وحده، فقد كان ينظر بغل لأي امرأة يلمح في عينيها ترصد لها، ترصد عروسا تصلح لابنها الفارس. قام من تحت المظلة ليخبرها أن ثوبها يشف ساقيها بما لا يليق، قطعت طريقه أحد صديقات الجامعة، وراحت تحادثه وهو يبتسم لها ويهز رأسه، يفكر فيما سيقول لرفاء، اختفت الصديقة محيية وهو لا يكاد يراها، سمعها تسأله من هذه؟ تلك التي تهوش شعرها ولا تجد غضاضة في الضحك بأعلى صوت مسمعة آخر الشاطئ! أي جامعة؟ ألا تراعي حتى أن أهل زميلها بجواره؟ إن كانت متحررة فهم محافظون.

سدت كل هذه الاعتراضات دفعة واحدة، نظر لها منتبها بابتسامة اجتاحت فمه اجتياحا، لكنها اعتذرت فجأة وتحركت من أمامه. كان شعورا جديدا لذيذا هذا الذي غمره يومها، وبعد سكوته طوال اليوم تكلم في المساء. قامت من الكافتيريا لتحضر شيئا من السيارة فتحجج وتبعها، انتظرها على السور أمام البحر، تجاهلته عن عمد فنادها، وقفت أمامه دون النظر نحوه.

- إنتي زعلك وحش قوي كده؟
- زعلي شيء ما يخصكش.
- فعلا؟ من إمتة الكلام ده؟
- من دلوقت!

قالت ذلك بعصبية وقد نظرت إليه أخيرا، كان ينظر لها وذراعيه متكئين على السور، فوقف معتدلا وهو يتنهد:

- بس انا ما اقدرش على كده.

- جديته الحبيبة دفعتها لتبلع ريقها، قال بصوته الجبار:
الغيرة من بنت ماكنتش شايفها أصلا تعمل فيكي كل ده؟ أومال أنا أقول إيه؟
وغيرتي بنتهش فيا من ساعة ما دخلتي الجامعة؟

نظرت للأرض، ورغم الظلمة النسبية لاحظت توردها من فوق، كانت تحفر في الرمال بإحدى قدميها الصغيرتين وتذكره أنها لا تتحدث مع فتية، صديقتنا المدرسة هما صديقتاها الوحيدتان، لمحت له أن القلق من نصيبها هي، اقترب منها خطوة ليصل لها صوته الخفيض:

- أنا كلي ليكي!

عادا للمنضدة مبتسمين، وعلقت والدتها ضاحكة: «سبحان مغير الأحوال»، غير أن والدته لم تكن بذات السعادة. لم ينأما تلك الليلة، ظلا مع الساهرين من العائلة، لا يتكلمان، يختلسان النظر لبعضهما وشعور غامر بالنشوة يغتال أعماقهما اغتياالا.

كان ضائعا ووجد نفسه الليلة، كان تعيسا إذ فرض على نفسه بعدا ضاق به ذرعا وضيّق عليه الحياة. كان بائسا في محاولات فشلت ليُدخل في نفسه أنها أخته! ها هو اتفاق ضمني آخر يلغي ما قبله، وهو غارق في السعادة يرتشف حبر هذا الاتفاق في أوردته، أو هكذا ظن...

عادا من نفس المصيف الأخير الجميل وهو يفكر فيها، كتب رسالة فك فيها كتمانها الذي أوشك أن يقضي عليه، «بحبك، مش قادر أستنى، هاموت وأحضنك! عاوز أحس إن انتي بتاعتني! عاوز أكسر ضلوعك من الحضن ده، عشان ما حدش يطمع فيكي غيري».

في المساء رنت جرس بابهم، دخلت بعد أن فتح لها وكان منطفئا، لم تفهم سر استقباله البارد، اتجهت لخالتها التي تشرب شاي المساء على صوت فيروز كالمعتاد، وجدتها رسالة من السماء أن يرن هاتف البيت مباشرة لترد خالتها، تحركت بتردد وطرقت باب المفتح، كانت الكتب مبعثرة أمامه وهو في كوكب مختلف، سألته ببساطة: «مالك؟» لكنه أجابها بكذب مفرط أن لا شيء، خرجت مكسورة خاطر، أغلقت خالتها الخط، سألتها بتأثر: «يوسف ماله؟»، قالت الخالة بحزن دفين إن إسماعيل تشاجر مع اثنين من الجامعة، سخرا منه ف ضرب أحدهما فتكالبوا عليه مع زمرة أخرى، فهمت رفاء كل شيء، أنهت الحوار بتمثيل متقن، ثم استأذنت وخرجت. بكت بحرقة، لكنه هاتفها يعتذر، كانت مقروصة ما زالت لكتها أكدت أنه على صواب، لم يحدث شيء أبدا! أجابها: «لكنه حدث!»، سمع صوت بكائها فقال بسرعة أنه كتب لها ورقة، «ممكّن تقريها؟»، سكتت، المراهقة سكتت، العاقلة كرهت العقل وعطشت للقلب وأبدت الضعف بكل حب، طبعا تريد، قال إنه سيأتي غدا ليسلم عليهم ويسلمها

الرسالة، كانت سعادتها غامرة، ترى ماذا ستقرأ؟ كلمات حب مثل كل البنات؟ لكنها عرفت بعدها أنه كُتب عليها ألا تشبه البنات.

تجهز وتعطر، أخرج كنزه المدفون، الورقة، قرأها مرات، ارتجفت أوصاله، كم أن الاعتراف لذيذا! جاءه صراخ أمه، خرج مهرولا فوجدها في الحمام، في كل خطوة يقترب يلحظ الدماء، ومشهد أذاب عقله للأبد! أمه تولول، وتمسك بأخيه، هو في حضنها كأنه وقع، وهي تبكي وتمسك إحدى يديه بيدها مبعدة إياها، نظر لتلك اليد فوجد موسى، ولم يفهم للحظة من أين تأتي الدماء.

في المشفى قال الطبيب إن التجميل لن يصلح، ستظهر آثار الغرز فوق الوحمة. تلك الليلة نظر للرسالة مليًا، وقام بتقطيعها إربا! تلك الليلة زارتهم الخالة مع ابنتها، ورأى في عينيها الدامعة، والنظرة من خلفهما نفس الورقة التي كتبها، ونفس التمزيق الذي قام به منذ قليل.

من الجيد أن نشعر بالخوف، الخوف شعور إنساني في النهاية، لا بد أن يكون هناك خوف، والإنسان عدو ما يجهل كما يقولون. يخاف الضياع، رغم أن الضياع حتمي لكون البشر بشر، الثابت الوحيد في هذا الكون هو وجود خالق له، لا شيء آخر ثابت! لا يصح ألا نخاف ولا يصح ألا نجهل، وإلا تألهنا وبحثنا عن يعبدنا، لا يصح لأحد الكمال، الكمال لله وحده.

وبصراحة من يريد الكمال؟ لا أحد يسعى وراء وهم، لا أحد يريد إصلاح حياته، الضياع لذة حتمية يتصور الإنسان أنه يريد الهروب منها، لكنه في الواقع مقيد حتى قدميه بها، الضياع مصير الكل فلم التعب؟

ربما لذلك استساغ مجدي كامل ضياعه الكامل، واستساغت منى زكي ضياعها معه وانصياعها له! ولذلك وجدت نفسها وهي ترتعش رهبة في حضن أختها غادة عبد الرازق، تستسلم لصوت الرجل الضائع الذي ينكل بسمعتها أمام الجميع.

عن العشق والهوى

(تقول لي رفاء أن أكثر ما تحبه في علاقتنا أنها تعلم أنني لست شريرا! تسألني لماذا تحولت لما أنا فيه؟ لا تفهم أنني فقط عاقل، فقط أرفض الغيبوبة التي أوقعت نفسها بنفسها فيها هي ومثلها كثيرون! حلم ضائع بالتمرد، على ماذا بالضبط لا أدري، فهل نستحق أكثر مما نحن فيه؟ لا أذكر حتى لماذا بالضبط نزلت الميدان؟ ربما هي رغبة غريزية عند كل البشر في الشعور بأنفسهم وبقدرتهم على الرفض! لكن في الواقع لا قدرة لدينا لا على الرفض ولا على الفعل! نحن مجرد كائنات ضئيلة خلق لنا قواد مثلنا مثل كل العالم. للقواد قواعد غير بشرية لا تسري علينا، لا يعرفون معها الخوف، ولنا قواعدنا التي تتضمن حتمية وجود الخوف؛ لأنه «من خاف سلم».

- حفظ خالد بسرعة بمجرد أن سمع باب الشقة يفتح، سيدخلون عليه كالنتار الآن، جيد أنه وجد مساحة لمكتبه الصغير داخل غرفة النوم، فُتح بابُه في لحظة ودخل الولدان يسألانه لمَ لم يتفرج عليهما في التمرين اليوم؟
- مش كل مرة، لما بقدر باجي، بابا وراه شغل.
- شغل؟ -قالت زوجته- أظن هاتقولي العمارة! الشغل حاجة تجيب فلوس تساعد في البيت.
- لازم يكون فيه مسئولية عند البشر غير اللي بتجيب فلوس يا مئة.
- في الآخر بيلوموك وبيطلعوا روحنا، إنت حر، بس ماتقصرش معنا إحنا في المقابل.

أغلق الحاسوب وبدأ يغضب:

- فين التقصير ده؟ ما بين تصليح البوتاجاز وتمارين الولاد ومراية العربية اللي حضرتك كسرتها!
- إنت هاتقعد تقطمني بقى؟

جلست فجأة وبدأت تبكي، تنهد خالد وقام من مكانه وذهب إليها، سألها ما الحكاية، منذ أن دخلت وهي عصبية من غير سبب واضح، أخبرته أن مستوي ابنهما الأكبر ينحدر في اللعب، مط شفتيه، طبطب على كتفها، حاول أن يفهمها أن مستوى الأولاد في صعود وهبوط هذا عادي، وبالتأكيد سوف يتحسن ما دام يواظب على الذهاب، إن تمارين الأولاد أهم من أي شيء في هذا البيت. طلبت منه متضرعة أن يأتي معهما في المرة القادمة ويتحدث مع الكابتن، فلوجود الأب أثر كبير! وعدها دون مقاومة، هذا خاطرها الآن وابتسمت، وقامت لدوامتها من الواجب والعشاء والاستحمام، للأسف دوامة لا يصلح أن يستغلها ليكتب المقالة التي نوى كتابتها لولا أن سقطت رفاء في مخه، دوامة عليه أن يساعدها فيها يدا بيد.

لكن الأزمة أنها اضطرت للذهاب لوالدتها لشأن هام ولم تذهب للتمرين التالي، وحين جاء التمرين الذي يليه اعتذر خالد عن المجيء، وعدها قاصدا اليوم الفائت، أما اليوم

- فهو مرتبط بموعد، وهي تعلم كل هذا!
- معاد تتفرج على فيلم؟
- قلتك ميت مرة ده تجمع ثقافي، في ناس يهمني أقابلها هناك، مرتين قبل كده ما عرفتش أروح بسببكم!
- بسببنا؟ إحنا إيه مش مسئولين منك ولا إيه؟
- طيب وأنا؟
- إنت أب قبل أي حاجة، أنا أعصابي مش قادرة تتحمل، إنت وعدتني، إنت وعدتنا.
- تمام، طيب يا مئة مش هاروح معادي كده كويس؟
- كويس جدا.

دخل لغرفته يحضر ملابسه لأخذ حمام سريع، وجد منها رسالة، تسألته إن كان سيذهب، رد عليها، للأسف لن يقدر، أرسلت له وجها مصدوما ثم وجها غاضبا، «معلش ظروف». ذكرته بالناقد الذي كلمهم عن ورشة تؤهلهم لدخول لجان تحكيم سينمائية تسهل لهم الدخول للجنة مهرجان القاهرة الدولي السينمائي! يعرف، لكن ما الحل، خرج من المناقشة وأخذ حماما وتجهز، حين خرج وجدهم مستعدين في انتظاره، سأل عن الغداء.

- معلش أنا مالحقتش أحضر حاجة النهارده، يا دوب حمرت بطاطس للولاد مع نص فرخة من امبارح.
- وبعدين؟
- معلش انت عارف النهارده كان عندي الست الشغالة، مالحقتش معلش قلتك؟
- زي ماتصرفتي للولاد مافكرتيش ليه تتصرفيلي؟ ولا أنا عبء عليكم؟ أنا هنا أنفذ طلباتكم وأعمل أوامركم بس؟ فهمت! حاضر، قوي قوي.
- مش عشان هاتيحي معانا هاتسمنا يا خالد! خلاص ماتاكل أي حاجة ليه بتكبر الموضوع؟
- صح، مايصحش أكبر الموضوع، فعلا أنا راجل هايف!

تحرك خالد كالمذوغ، ودخل ليعد لنفسه شطيرة سريعة، التهمها وأخذ خيارتين واحدة في فمه والأخرى في جيبيه ومضى. لم يتكلم كلمة واحدة طوال الطريق، تكلم مع الكابتن عن الولد وجلس يشاهده وكان يجتاحه غضب عارم، في أثناء طريق العودة قالت:

- ربنا يخليك لينا، إنت لسا زعلان؟

لم يجب، وصل ودخل ليغير ملابسه، عرفت مئة أنه لن يساعدها تلك الليلة، حين ينقلب ينسى مسؤولياته! دخل للمطبخ يعد كوبا من الشاي مع بعض البسكوت الذي

- اشتراه من النادي، وأمام الغلاية فتح هاتفه على الفيس بوك، وجد منها عشر رسائل، ابتسم، بلل شفثيه بلسانه، فقد كان عطشانا. سمع زوجته تحدثه، تقول ألا يجعل من موضوع الأكل مشكلة! تقول إنه تصرف، فلماذا لا يتصرف مع الأمور بالبساطة ذاتها؟ بصي يا منة، أنا بعفيكي من مسئوليتي في البيت ده خالص.
- خالدا!
- ما تتعبيش نفسك، مهما عملتي مش هاكل غير اللي هعمله لنفسي، ولا حتى تكويلي هدومي.
- إنت كده بتعند نفسك على فكرة!

تحرك من أمامها وجلس في الشرفة وأمامه صينية الشاي واللين، أعطى ظهره للسور وبدأ يفتح الهاتف، طبعا، تحكي له كل ما جرى في هذه الأمسية، والآن من حقه أن يتناول بعض الحلوى.

في أثناء انسيابها الكامل في الطريق، لا تكاد بالفعل ترى شخصا أو شيئا، ترقص بالأكتاف تغني بصوتها، تراءى لها معتز، لو رآها الآن لُصعق! لقد اكتشفت أنها تحب صورتها النزقة في عين خالد، تحب أنه يحب المتمردة في داخلها ويحترم المسئولة في ذات الوقت، لا شرقي ولا غربي ولا «كلاكيك» من هذا النوع.

نفس الشخص، رفاء بذاتها، ما كانت لتعجبها نفسها لو أنها رأتها في مرآة المستقبل على هذه الهيئة! ما كان يعجبها تحرر الإناث الزائد، ولا كانت تحب العوج، ماذا حدث؟

من يومين التقت أسماء، ياااه، أسماء! سكتت ملامحها، سمعتها تسألها إن كانت تذكرها، فقد كانت معها في قافلة الفيوم من سنوات، فريق صناع الحياة.

مثلك لا يُنسى يا عزيزتي، لكنه زمن لا أجد في نفسي الرغبة في تذكّره، وكأنه زمن السدّج، فسامحيني. تسأليني بنفس صفائك المنقطع الشبه «مش هانشوفك تاني؟»، ماذا عليّ أقول لك؟ الكلام المعتاد، الزوج والأولاد، لكن ذلك ليس أبدا مبعث رفضي ولا فقط سأم غير مبرر بدأ يتغلغلني، بل أنني لم أعد أرى فيما تفعلين أي معنى! لا تزال ربطة حجابك المحيطة بثلاث جسدك لاثقة عليك، على وجهك الملائكي الأبيض الخالي من أي لمسات تجميل، لكنها لم تعد تليق بي. لا تزال دعاء منزعجة منّي، لا يهم! لم يعد يهمني رأي أحد، تسألني متأزمة بشدة أين رفاء التي تعرفها؟ هل تصدقيني حينما أقول «لا أعرف»، لم أعد أعرف، والغريب أنني لا أريد أن أعرف، أضحك بصوت، أستلذ الجهل، أستلذ الضياع ما دام مؤقتا، ما دام يحييني.

ارجميني إذن يا دعاء في قضائك وأريحينني، أنزلي حكمك واتركيني، لأحلق.

نظرت في ساعتها، الحادية عشرة إلا الثلث، تضحك وتطلب رقمه، «طز» في الأسرة! عليهم أن يحترموا مكالماته الخاصة على أي حال، أصبحت الشقاوة تلائمها بشكل ما، تستلذ لغته الخفية وضمير المذكر كي لا تعرف زوجته أنه يكلم امرأة، قال إنها مسئولة منه! تقول له كل شيء دون تردد، لن يضيّعها بالتأكيد، ملّت ارتداء الأقنعة.

في الصباح التالي طلبت حماتها الفتيات لقضاء الويك إند، فلمعت عينا رفاء.

نزلت وهي تطير فوق الدرج، ستقابله، متى آخر مرة رأيته؟ نحافته الشديدة التي قد تكون مزعجة لذوقها في الماضي، إنما لا تأثير لها اليوم، بل حتى تفاحة آدم التي دوما ما كرهتها في الرجال، تجد عفوا عينيها تتعلقان بها في أثناء ضحكه، أو شربه للماء. غريب أن يتغير حتى ذوقها، كانت تفكر في كل ذلك طوال اليوم ولا تنام.

تزوجت في العشرين، وكانت محسودة لفرصة مناسبة في سن مبكرة، ثم تكيّفت على ما هو مطلوب منها كزوجة، شجعها معزز الذي، فلنقل كان سعيدا بها كعروس، أو بنفسه كعريس، لا فارق ربما، لكن...

هذا الهدوء الرهيب الذي تسرب كالسيانيد في أوردة تجلطت بالفعل، فشلت حاسة التذوق في حياتها تماما. رأت اتصالا هاتفيا من خالد، ابتسمت في البداية، ثم قلقت، أحيانا ما يتصل ليعتذرا! في آخر مرة اعتذر فيها كانت بالفعل في الطريق، وهي عائدة دمعت عيناها، وتساءلت هل حسدت نفسها؟ المشكلة أنها تكاد تتبخر من خيبة الأمل، تكون الدنيا قاحلة حين يعتذر، لا مبعث حقيقي للسرور في الحياة، ولا حتى هو متقلب المزاج متكرر الاعتذار هذا! يعتذر لأسباب تستفزها! أسباب ما كان معتز ليعتذر عنها لأجلها أبدا. أولاده يريدونه في التمرين معه؟ السباك في الطريق ولا يصح أن تقابله زوجته وحدها، زوجته كسرت باب الثلاجة؟! كثيرا ما تساءلت لماذا لم تستحق زوجا يساعدها في كل شؤون البيت كما استحقت منة زوجته؟

حين ردت عرفت أنه وصل، فانتشت وضغطت على دواسة الوقود.

كانت مبهرة في اللون السكري والوشاح الزيتوني الذي ارتدته، يناغشها بالنظرات من هم حولها مما يزيد بها انتشاء. علق على جمال الألوان رغم أنه كان يكره الكيمياء التحليلية للغاية! سأل كيف يتركها معتز تخرج هكذا؟ كان يغازلها لكنها ضحكت ساخرة، فمعتز يضيّق الخناق عليها بالفعل وكأنها طفلة غير مسؤولة! يمارس دور الأب عليها ويتركه مع بناته، مضحك حقا. لا تؤمن بردود خالد من نوع أن هذا الزوج بالتأكيد يغار عليها، الأمر لا يخص الغيرة ولا من بعيد، الأمر أنه تعلم أن الزوجة على ذمته وهذا يعني أن العيب إن خرج منها فهي تصمه هو، لكنه في صميم قلبه لا يراها

أصلا حلوة ولم يخبرها بذلك من قبل، تقريبا هو يرى جميع الفتيات من حوله أجمل منها، يعلق على البيضاوات دوما بوجه مكشوف على أساس أنها حجر لن تتأثر رغم أنها سمراء بشكل واضح، كل ذلك طبعا بالإضافة للقائمة العامة لكل الرجال من هيفاء، ونانسي، وإيسا!

- يعني عشان الراجل عصري ومش حابسك تفتكريه مش شايفك جميلة؟
- بالضبط! قصة فيلم (أين عقلي)، أنا متحضر، أنا عصري، أنا سايب مراتي «اللي هي مش جميلة ولا مثيرة في نظري» تختلط بالناس لإنني تمام، لكن من جوه متقطع وعاوز أقطع! عاوز أولع واحرق في الكل، لإن مش المفروض يحصل كده، ما علمونيش كده، أمي ما كانتش بتعمل كده!
- طبعا ببيغير عليك، مش مسألة أجمل، فيه ستات بيدخلوا فأحاسيس الواحد، من غير سبب.

اجتاحها إعصار غير مرئي، دار على جسدها من أسفل لأعلى، كان ذلك إطرأ كبير بالنسبة لها، دون أن يعلم الحجم العظيم، والتأثير الكبير. يبدو أن هناك شيئا له بدن وروح يسمى الأثوثة بداخلهن، هذا الشيء هو الذي ارتعش الآن، هكذا فكرت.

- أنا آسف، إن كنت زودت في الكلام، لكن راجل على قد حالاته زيي، مش قادر يصمد قدام المملكة العظيمة دي!

نظرت إليه، قفزت الحيرة على عينيها صارخة «على إيه؟!» فابتلع حيرتها بعينين قويتين وتابع مؤكدا:

- ست بتشتغل وكمان مش عاجبها شغلها ونفسها فأكثر، وأم لتلات بنات بتفكر كل يوم في مشكلاتهم واحتياجاتهم، وفنانة من جوه، جواها حاجات كتير دافية وغزيرة تغرق أي حد، تبقى ملكة وليها مملكة ولا لأ؟

لم تكن تعرف أن حمرة ما غزت وجهها الآن، رأى ذلك بينما تبعد عينيها عنه، تنهد ونظر بجانبه نحو لا شيء ثم اعتذر مرة أخرى، قال إنه رجل ضعيف، وقد يفقد السيطرة أحيانا.

- بس انت مش ضعيف؟

ضحك ضحكة بدت ساخرة وقد برز نهر النيل في خده الأيسر، وقال إن جبر الخواطر على الله، أسمعته ما أسمعها إياه، أنه درس الصيدلة ويعمل في صيدلية، ويصر على متابعة السينما بحرفية، لكنه لا يتخلى عن مسؤولياته كأب، بل هو حبيس بيته، ثم إنه يملك موهبة فذة في الرسم عليه أن يتابع تنميتها.

وهكذا كان هذا اللقاء جميلا سعيدا تمت لو أنه لا ينتهي.

«من أكون معه في الحوار بمخي وتفكيري كان يمثل لي شيئا حبيبا، يسعدني، أحسد نفسي عليه، شيء من وقاحتي أدعو الله ليل نهار ألا ينقطع، وأتصرف بعكس طبعي وأقول لنفسي لا داعي للتفكير ولا الحسم، وأبرر لنفسي طوال الليل والنهار لماذا يجب أن يظل هذا الشيء في حياتي! المضحك، بل المبكي في الحقيقة أن يتحول هذا الشيء المقدس لشيء بغيض! كريبه! يعذبني ويغرس سنا في رأسي! أعجبتك الراية البيضاء؟ فعلا؟ هزئت بهم؟ مسحت بهم الأسفلت سخرية لأنهم جلسوا أمام البلدوزر؟ تعجبك الكنية وتآلف حزبها؟ اخترت أن تكون صرصورا؟! اخترت أن تعلق البيادة؟ كم أتمنى لو أنني بداخل كابوس!».

كتبت رفاء هذا الجنون في رسالة وداست زر الإرسال، فقد حولتها قراءة ملصقاته لكتلة نار دخانها أسود، لم يكن رد فعل خالد بسيطا رغم لغتها المحطمة، كان قاسيا، ربما مثل معتز. رد بعريضة طويلة تهزأ ممن هم أمثالها الذين يحبون أن يعيشوا في الوهم، وتسخر من مأساة يرى أنها صنعتها بنفسها لنفسها! ثم انقطاع لا تعرف له آخر. كلا ليست مهمة ولا تساوي كثيرا -بعد- كما ظنت. ما مزقها أنها أدركت أنها ستعود له في النهاية، ستسترضيه، لن تتركه! حاولت استدعاء قسوته دون جدوى.

معتز، متى تحديدا تحول حضور معتز لجلسة تعذيب؟ كان صوت مفتاحه يفتح باب الشقة يسبب لها ألما تغلق له كلتي عينيها، ربما هي الأم التي دلته، قذفته لها كمن قذف قنبلة في ثكنة العدو وركض! تذكرت ماجدة في (أين عمري) وهي تلوم أمها أمينة رزق بعد تلقيها ضرب السياط من زوجها العجوز المجنون «كنت تعلمين! وزوجتينيه، وتركنتني أجابه ذلك وحدي!»، هكذا كانت تنظر لحمايتها، أفسدت الصبي ولم تعلمه كثيرا من معاني الرجولة، فالرحمة رجولة، والاعتراف بالخطأ رجولة، والإيثار فضيلة الرجولة! وليست الأنانية على كل حال، ثم صبغته بصبغتها العجوز ولم يحنّ هو -للعجب- لشبابه وسنه الحقيقيين. أسوأ الناس أسوأهم لأهل بيته، مثلك يا معتز، أنتظر نومك بفارغ الصبر، أتلقى خبر سفرك بفرحة عارمة أرهق في إخفائها، كنت أبدأ المهادنة، أحاول إرضاءك، لكنك لا ينفع معك سحر الأفارقة يا أخي! إن كنت مريضا فلا تمرضني معك، من أعطاك الحق في تصديق أن الكون يدور حولك؟ وعلاقة عطاؤك الوحيد فيها راتبك المتوسط؟ هل تعتقد أنني غافلة عن رحلات والديك التي لا تنتهي؟ عن حقائب أمك التي تبدلها كل شهرين؟ لماذا يدلها والدك وتدللك هي وألبس أنا الخازوق وحدي؟ كيف تركت نفسي لسّمك سنوات وسنوات، لا تهتم سوى بنفسك وبقائى أمامك كتمثال يحرس البيت؟ أنا بالنسبة لك

كائن وجوده يجعلك لا تعيش وحيدا تماما، هذا هو سبب زواجك بي، أن يكون هناك شيء تعيش حياتك وهو حولك، يحتاجك، بشرط ألا تكون لديه القدرة على استبدالك. حتى فعل الحب لم تكن ناجحا فيه، أنا، تكرر المرأة أن تقربها، «لكنه طيب»، تقول لي دعاء، قلت لها إني واثقة أن «هتلر» كان طيبا لكنها الظروف! «لكنه لا يخونك» تقول داليا، يا ربي لو تعلمين، أتمنى أن يفعلها ولو على سبيل التغيير، لكن من تلك العمياء التي ستفعل؟ «فيس بوك كما حدث معك؟»، كيف؟ إنه شخص ممل! أحاديته ممل! مزاجه ممل! كانت أول مرة ألحظ أنه لا يملك هواية واحدة! ولا واحدة! «كلنا مرضى»، صحيح كلنا مرضى، الفرق أنه لا يعترف.

كنت أسخر من الأمريكيان الذين حين يُسألون «لماذا هو/Why him?» يجيبون «إنه يجعلني أضحك!/He makes me laugh»، ها قد دفعت ثمن سخريتي غاليا، وأن لي أن أتحرق من الدين، أو هكذا ظننت..

في كل مرة يشعر خالد باقتراب الأمر يعالجه بطريقته، الطريقة التي يجدها سحرية لحد الجنون: البترا!

كم قالها له والده: «الدراع اللي مالوش لزمة، إقطعه!» وكأحمق لم يفهم رسائل والده الثمينة، فهو الحل الأمثل، الضرب في المليون هو الحل الأمثل، حرق دابره هو الحل الأمثل، فليحيا حكم العسكرا!

أمام محل «ستيلا» المنخفض تحت درجات السلم شاهد شحاذة سورية، شاهد جمالها الغريب رغم الوسخ، لمح أظافرها المكسورة كمن نهش الأسفلت، راحت تمد يدها لكل مار وهي تتشح بوشاح أسود تمسكه بيدها الأخرى تحت ذقنها، همّ يقترب منها، لكن ماذا سيفعل؟ ماذا يملك؟ بضعة جنيهات؟ وقف مغاضبا للدنيا كعادته، لم تطرف له عين. إنزالها يعذبه، وهو واقف خانع لعذابه، ورآه، رآه يساومها داخل سيارته الفارهة ذات النوافذ السود، رأى نظرة في عينيها لم ينسها أبدا! نظرة غريق بدأت المياه في دخول رئتيه، وركبت، واختفت. ما يوجع ليس كونها عائزة خضعت للبيع، ما يوجع أنها ربما لم تكن عائزة يوما، ما يوجع حقا أنها ولدت وكبرت في مكان مختلف تمام الاختلاف عن الذي بيعت فيه الآن.

ما أقرب الأمس من اليوم، وما أقرب الغد بهذا السواد لو تركنا العسكر لنصبح سوريا جديدة. إن كانت مجرد «هوجة» أطلقوا عليها ثورة ترأسها بعض «العيال» أودعتنا في بئر مظلم لم نصل لقاعه بعد! فقط لأننا أربكناهم لبعض الوقت؟ فما بالك لو أن

الإرباك تحول! مساكين السوريون، مساكين العراقيون، والليبيون، لم يبق سوانا فكيف لا ينظرون؟ كيف لا يفهمون؟

وتأتي ساذجة مثل رفاء هذه لتتكلم عن الفساد والظلم؟ مرارة البيع أقوى ألف مرة من مرارة الظلم يا رفاء لو تعلمين! لا تسألني ولا تعرفني، نحن هكذا في خير حال، أو هذا ما أظن.

حدثت صديقتها، استماتت، استطاعت انتزاع لقاء معهما، لساعة حتى. داليا تركت فتاها في Kids Corner، ودعاء لا تترك طفليها أبدا، لكنها تترك الكبيرة في الدرس ربما. كالمعتاد تأتي سيرة الأطفال، كالمعتاد تلوم دعاء داليا وتطهوها تقريبا لتركها ابنها كثيرا، تدافع داليا أن الاحتكاك جيد للأطفال حتى لا يلتصقوا في أمهاتهن، لكن دعاء لا تحيد عن المبدأ «أغرقيه في حنانك وحضنك، فلن يجدهما في مكان من بعدك»، تقول لها داليا قولتها الشهيرة أنها تحب «نظريات تيتا»، تنتبهان لسكوت ثالثتهما، تسألانها ماذا بها؟

- أبدا! واحدة عندها واحد والثانية عندها بنت وولدين، أنا بقى عندي ثلاث بنات! أنا الفقرية الوحيدة...

نظرت نحوها دعاء في اعتراض:

- استغفري ربك دي نعمة كبيرة، ربنا يحفظهم! تقصدي محظوظة! منا كان نفسي أجيب خمس بنات، لكن بحمل بمعجزة!

قالت رفاء:

- احمدي ربنا!
- احمدي انتي ربنا -احتدت دعاء- اتجوزتي أول واحدة فينا، خديتك سنة راحة ولما عزتي ماتعذبتيش على الأطفال، كل حاجة جتلك سهلة!
- إنتي ماتعرفيش حاجة عن اللي بيحصل معايا عشان تقولي كده.
- ولا انتي تعرفي حاجة عن الحرمان، ولا الوجع، ولا الانتظار!

تحدثت داليا الآن لتهدئتهما:

- ما حصلش حاجة لكل ده، وبعدين يا دعاء انتي فعلا مش عارفة حجات كثير، بلاش تحكمي من بره.

- إليه اللي أنا مش عارفاه يا ترى؟
- خلاص!-قالت رفاء- خلاص احنا مش متقابلين نتخانق!
- بصوا -قالت دعاء- انتو الاتنين آخر اتنين تفتحوا بكم- واحدة اتجوزت واحد قعد يمطوح فيها سنين من غير ما تفهم إنه مايصلحش زوج، وفي الآخر تقضي كل حياتها تفكر إزاي مايسبهاش، ولا أمومة ولا بتاع المهم مايبصش لواحدة جديدة، والتانية...
- إليه؟ -قالت رفاء بانفعال خفي - هاتقولي إليه أكثر من اللي قلتيه؟ أو مال لما تعرفي إن المحظوظة اللي منتظرتش وماتوجعتش وماتعبتتش دي، رافضة المنظومة كلها، والسافلة! في فحياتها واحد تاني.

حدقت كل منهما في رفاء بمزيج من الذهول ومحاولة الاستيعاب، داليا تحاول هضم إن رفاء قالت شيئاً كهذا للشيخة دعاء، والشيخة دعاء تحاول استيعاب الكارثة التي سمعتها تو!!

أسرعت داليا تتكلم:

- مش زي مانتي فهمتي يا دعاء! ده مجرد واحد بتدردش معاه على التشات، مش أكثر.

صاحت رفاء:

- أنا مش محتاجة أذافع عن نفسي! -نظرت لدعاء - ها؟ هي دي صاحبة عمرك، دي حقيقتها! دي محظوظة وأنانية وجاحدة لحظها.

قامت دعاء واقفة بعصبية متصاعدة:

- ما يشرفنيش تبقى صاحبة عمري واحدة زيك!

اقتلعت ابنها من كرسي الأطفال، ونادت بعصبية على الآخر، وانطلقت كصاروخ فقد طياره. كانت داليا قد وضعت يديها تخفي وجهها، والآن اكتسحه احمرار، سألتها لماذا فعلت ذلك؟ رفضت مبدأ أن هذه هي الحقيقة!

- لأ مش الحقيقة! إنتي إليه اللي جراك؟ الأول كنتي هاتموتي، عقدة الذنب كانت مكسحاكي، جسمك أتملا بطش، وضغطك واطي على طول، أنا خايفة عليك، خايفة تكوني وصلتي لمرحلة التبليد.

كانت تلك هي كلمة رفاء لها من أكثر من عشر سنوات، «خايفة عليك من مرحلة التبلد»، حينما كانت رفاء هي الناصحة الدائمة لصديقتها العاطفية، كانت المكابح اللازمة وقت اجتياح الجنون ولا مكابح لها هي الآن.

افترقتا، وعادت رفاء محملة بذنوب لا قبل لها بها. لماذا تعمدت أن تتعري أمام صديقتها؟ لماذا قصدت أن تلتخ صورتها أمامها؟ وبكل بساطة كما أشارت داليا. كانتا الأكثر اتفاقا فيما مضى، كانتا تتحدان دوما من أجل وقف داليا عند حدّها، كانت رفاء تدعو ليل نهار قبل زفافها أن تكون دعاء هي من تتلقف باقة الورود من ورائها ليلة عرسها! لأن دعاء دوما ما كانت الأقل حظا، الأقل مالا، اليتيمة ذات الأعمام الجشعة، والتي خسرت معها منافع مادية كثيرة تباعا. بعد رجوع أحد الأقارب من السعودية وبحته عن عروس، كأنما جاء لينقذها، استعجل الإنجاب، وداخت في دوامات تنشيط التبويض. حتى هذا العائد لم يأخذ من السعودية سوى تشدها الديني، فقد خسر معظم ماله في البورصة على يد والده ومن وراء ظهره. دوما ما كانتا الأكثر شبها، بطبيعة الظروف كانت دعاء الأكثر عصبية والأقل رفقا، لكنها ظلت الأقرب لها من داليا التي تقلدت دوما دور الطالب المعاقب.

أنت لهما داليا من سفرة في الساحل الشمالي تقول إنها وقعت في الحب، «البصباح الدونجوان»، مدمن الحريم لاعبها ووافقت! يكبرها بعشر سنوات! وطوال سنوات الجامعة ما بين شد وجذب بينهما، وبعد التخرج مباشرة خُطفت رفاء، وتزوجت دعاء، وبعدها رزقت دعاء بالمولودة كانت لها مشكلاتها التنفسية الوراثية، وانتهت من مواويل الحضّانة بصعوبة! وولدت بعدها طفلة رفاء الأولى الصحيحة، ثم حاولت دعاء الإسراع في مآخاة الوليدة رغم متاعبها الصحية، لكنها فشلت! سبع سنوات حتى استطاعت الحصول على الولد، ثم عام وشرف الآخر قبل أن تنتصف ثلاثينها، وها هي داليا أجملهن في انتظار المحبوب الغادر، تقول لها رفاء أفيقي! تقول أخاف أن تكوني قد وصلت لمرحلة التبلد.

التبلد هو حالة من انخفاض التفاعل العاطفي، وعدم التأثير بأحداث المفروض أن تكون بالغة التأثير، مرحلة يصلها الشخص بعد أن يمر بفضل عظيم في حل مشكلة عظيمة تعثر بها، فيتجه إلى الاستسلام والرضوخ للواقع كما هو.

ربما! ربما يا داليا وصلت لها أو وصلت لي، لا أدري ولا يهم.

(1). لم يكن الفصل الحالي لمهام الإدارة المركزية ووجود هيئة للدواء، وهيئة للشراء الموحد، وهيئة الجودة قد تم بعد.

(٢)

تساءل الحكماء لماذا دوما ما تكون المتعة عابرة؟ تدارسوا إن كانت السعادة حقا مجرد لحظات في العمر لكن الأصل هو الهم والحزن؟ رغم أنها -ويال الغرابة- تبدو مديدة تلك السعادة حينما نشعر بها، تبدو في استحقاق كامل تلك المتعة لكل التضحيات الممكنة في سبيل نيلها! تبدو كذلك لكنها ليست كذلك، وكعربة ساندريللا ذات الأحصنة البيضاء تختفي بأسرع مما نتوقع! الوجد ليس في اختفائها، اختفاؤها يسبب حسرة ومرارة منقطعة الشبه، وشعور موحش بالفقد والحرمان، لكن الاختفاء ليس الوجد، الوجد الحقيقي فيما يلي تلك السعادة، وكأنها دين واجب السداد تمت استدائته من يهودي بارع انثزعت الرحمة من كيانه، ما يليها شعور يستحيل وصفه بكلمات، أزمة وجودية! ربما لذلك، انسحقت فاتن حمامة وهي في شقة حبيبها الأمير إيهاب نافع، ذابت لوجودها معه وأخيرا بعيدا عن العيون، وفي داخل العش الذي كان من المفروض أن يكون عشها، ذابت، ثم انسحقت كحشرة! وهي تستمع لصديقه الذي داهمهما فجأة، وطلب حق رجولته في الأنثى القابعة بالداخل، ولم يصدق ما قاله الأمير عن أنها «ست محترمة، لأن»؛ «هو في واحدة محترمة تروح لواحد في بيته؟».

شيء في حياتي

فتحت الماسنجر في المطبخ خلصة، من أيام ترسل له «أنا بس بسأل عليك» لكنه لا يجيب على الإطلاق، لو فكرت خمس دقائق ستدوس على قلبها فتسحقه. تكره أن تتذكر أنه حجر، وتعرف أنها تتجاهل تلك النقطة الفارقة بينهما كي لا تفسد العلاقة كلها، النقطة الفارقة أنها تؤمن بوجوب الإيمان، وهو يكفر بكل إيمان.

تهللت حين وجدت ردا، فتحت بسرعة: «الحمد لله بخير»، فقط! أصيبت بإحباط شديد، لم تجد بدا من الذهاب مرة أخرى للصيدية لمصالحته، كانت الرياح قارصة وكان وحيدا حين دخلت وأغلقت خلفها. يتبدل بسرعة أمامها، يحن ربما، يقبل مصالحتها بيأس شديد، وجودهما وحدهما معا أصابها بتوتر لم تنتبه له من قبل، نظرت للساعة، قالت بدلال:

- لازم أمشي، فكر هاتصالحني ازاي؟
- أصلحك؟ مين فينا اللي غلط؟
- أنا جيت وخلص صالحتك، لكن مين قال إنني اتصالحت؟ وعلى فكرة مش هاتصالح بسهولة.

ابتسم، سألها عن التكفير اللازم، فقالت له فكّر. غاب وفكر، ثم قرر، ثم أنه نال الرضا.

السهرة التي وعدها بها، اللقاء الرجولي السري العصي، جاء مواعده!

هل يمكن أن يموت المرء من فرط الاستثارة؟ هكذا سألت رفاء نفسها، ولم يكن سؤال في انتظار جواب، ضميرها؟ بقبضة فولاذية هاجمته فطرحته أرضاً وتركته ينزف هناك بعيداً، معطية نفسها فسحة من الوقت كي تنطلق كرصاصة طائشة في الهواء! «وعلى بال ما يفوق من الكوما»، ويسترد عافيته، تكون هي قد شمت نفسها.

كانوا في انتظارها: قباني الملحد، وسملوطي السلفي سابقاً والهلاس حالياً، ثم منشاوي العربي. كانت حزينة إذ أخبرها خالد بغلق قهوة الفيشاوي، لكنهم اختاروا قهوة أخرى ستعجبها، قام الثلاثة يحيونها ويصافحون، وكانت تتحرق لتعرف ماذا قال عنها لهم لكنها لن تسأل. جلسوا وأسرع كل منهم فأمسك لي شيشته، وسمعت خالد يخبرها أنهم كلهم بطبيعة الحال «أحمدات»، ثم ينادي طالباً شيشة له ولها. كان بجانبها على كنية مغطاة بقماش خشن مخطط وهدما والثلاثة كل منهم جالس على كرسي خشبي حول طاولة مربعة من الصاج الفضي من دون مفرش. كان يذكرهم أن يتعاملوا برفق مع «الخوجاية»، ويذكرهم ألا يتركوا العنان لأي لفظ خارج، وكانت تهدئ من تحذيراته وتخبره أنها ليست طفلة، وعليه أن يتخلى عن دور «بابا» ويتركهم على سجيبتهم.

• اسم الحلاوة الطحينية إيه تاني كده؟

كان ذلك العربي، ضحكت رفاء وقالت اسمها، وازداد ضحكها إذ حك مؤخرة رأسه بعنف، وامتعض بشكل مسرحي وهو ينظر بعدها لأطراف أصابعه كأنه وجد شيئاً، ثم نظر لها متابعا:

• لامؤاخذة! بس ده معناته إيه يعني؟

قال قباني:

• مش بتسمع أما يقولوا بالرفاء والبنين؟

نظر شناوي نحوه بأعين شبه مغمضة ثم قال:

• هو رفاء يعني بنات؟

وحينما انفجرت من الضحك تابع:

• أيوه ما هو لزمَن يقصدوا بالبنات والبنين! ولا دول صعايدة ولا إيه مش فاهم.

عبرت لهم أنها لا تكره شيئاً في الكون ككراهيتها لاسمها! كثير من الناس كان يخطئ في النطق، وآخرون كانوا يظنون أنه اسم لذكر لا تدري كيف! أما السؤال المعهود المكروه «يعني إيه؟» فكان يشعل حنقها في ثوانٍ، سكتوا كأنهم موافقون على رفض الاسم، باستثناء خالد الذي رفع حاجبيه اعتراضاً ثم سكت.

جاءت الشيشة، وترقب الجميع أول سحبة للخوجاية ولم تخيّب ظنهم إذ راح السعال يمزق الحنجرة الصغيرة، والحناجر الفظة من حولها تغلي. بدأ الهلاس يحكي لهم عن فيلم شاهده مؤخرال «كاميرون دييز»، وما أدراكم من «كاميرون ديبيز»، وكان دوما ما يخلط الفصحى بلغته بطريقة لا شك في أنها مضحكة بشكل بالغ، ولم تفهم إن كانت كثرة الضحك هي من سببت لها هذه الدوخة، أم كثرة الدخان الذي أصرت وثابرت حتى ملأت به رئتيها. شعرت أنها وصلت لحد ما من النشوة لم تصل إليه قبلاً، فعقلها ليس معها، محلق على ما يبدو، وكانت تعتقد أن القلب فقط من يمكنه التحليق. بابتسامة سألت قباني إن كان ملحدا فعلا، كان يتحدث بشكل مميز إذ تأخذ شفاهه مطة جانبية كل دقائق كأن أحدهم يشدها بخيط، قال كلاما غريبا، قال إنه من البديهي أن هناك إله، فمن خالق هذا الكون وهذه الكائنات إن؟ لكن هذا الإله بقوته وعظمته لن يترك كل مشاغل الألوهية ليختبر كل فرد وما يفعله من حرام وحلال، أعطى الإنسان نفسه حجما أكبر من حجمه، وقال إنه كرم بالعقل لأسباب طويلة، واهية! فمن قال إن البعوضة التي تشقى طوال النهار والليل لأجل نقطة دم ليست أفضل منه؟ نحن كائنات مغرورة، مجرتنا نقطة في بحر المجرات، قطعنا لن نشكل فارقا معه! ألا يقولون إن كل المخاليق تسبح له ليل نهار؟ حتى الشجر والحجر؟ ماذا سيعوز منا نحن؟

• بس يا قباني! ارحم أهالينا من هريك ده!

لم ترد رفاء أن تفهم، شعورها -ويال الغرابة- بالجهل كان له لذة! تأخر الوقت، وما زالت جالسة تضحك بأعلى صوت، وستة خناجر مسددة إليها من حيث لا تحتسب. قال خالد إن الوقت تأخر، لكنها قالت فورا إنها في حل من أي موعد، نظر لها منشأوي العربي وقال:

• بقولك إيه يا حلاوة، عندي مكان أجمل وأهدى من ده، هايعجبك قوي!

قال قباني ناظرا للمعة عينيها:

• أنا أشهد إنه ما يتفاتش! سطح من عليه تشوفي مصر القديمة كلها.

«الله!»، هذا ما قالته بنبرة حاملة مغموسة في تيهها العقلي المُستلذ، لكن شخصا ما هاهنا ينصهر عرقا:

• مكان إيه وزفت إيه؟ أنا لازم أروحها حالا!

قال خالد ذلك وهو يلتفت حوله بحثا عن مفاتيحه، أمسكها ووقف، لم تكن متجاوبة معه، كانت ترى أنه من البديهي أنها وإن أحببت الفكرة فلن تذهب لمكان غير بيتها في هذه الساعة! لكن أثر الخدار اللذيذ ما زال يعجزها نوعا، قاطعه قباني:

• مش تسألها الأول؟ مابلاش الحمو ده!

ضحكت على اللفظ الجديد، وسمعت نفسها تتكلم:

• يا جماعة أنا يسعدني جدا والله، لكن...

• مافيش لكن، ينفع تحكمي قبل ما تشوفي بنفسك؟

لكن خالد كان قد تحول لقطعة جمر وهو يضع حسابهما على الطاولة بيد ترتعش ويحثها على القيام، أجلسه قباني بشكل فكاهي عنيف نوعا وهو يقول أن من يأكل وحده «يزور» تلفظ خالد بلفظ وقد ظهرت عصبيته، هنا فقط اشتغل معامل الخطر لدى رفاء، هنا فقط بدأت تشعر بتوتر خالد وتري ضباعا، قامت واقفة أخيرا وقالت تستأذنهم أنها تعرف طريق سيارتها. قام منشاوي فأصبح الواقفين ثلاثة، وقال رافعا حاجب الخبث:

• أوصلك أنا لعربيتك، والجدع ده يفضل هنا!

فضّلت أن تمثل البلاهة على أن تمثل الفهم فتظهر قلة حيلتها! أخيرا وقف سملوطي وأخيرا نطق، قال بحذر:

• هي اللي تختار يا جماعة، ماتنسوش إنها جت معاه.

• تختار إيه؟

نظر الجميع إليها هنا وقد وقفت، التفتت وراءها فالتقطت حقيبتها، ثم شكرتهم على هذه السهرة وتحركت وحيدة، إن كان انفصال خالد حماية لها فليكن.

كانت خطأها سريعة، داهمها الغضب، وقد لاحظت أن معظم المحال قد أوصدت أبوابها، وال«هانم» ما زالت جالسة بين مجموعة من الرجال الذين لا تعرفهم، حتى القهوة التي انسحبت منها توا لم يكن فيها سوى أفراد متفرقين هم في الغالب ضباعا

أيضا أو أنصاف رجال، لم يكن أحدهم سيهب لنجدتها إن هي استنجدت، ولذلك ربما تجرأوا عليها. سألت دموعها هنا وحرقة تكاد تكويها، هل نزلت لهذا الحضيض؟!

كانت تقود السيارة في غير وعي، أو رافضة للوعي الذي يحرقها. وصلت بيتها وصعدت تشعر بوحشة شديدة من دون بناتها، ومن دون معتز! ارتجفت لدى تذكّره، تبدو مشاعرها شديدة الجنون في هذه اللحظة، شديدة التضارب! نامت بملابسها ووجهها مُنْدَى، نامت هروبا لا لشيء آخر.

- قومي!

بشيء من الروع فتحت عينيها في فزع! أضيء النور فجأة في نفس اللحظة التي رُفعت فيها الأغطية عنها بعنف، لم يعطها حتى فرصة! بقبضة عاصرة يمسك رسغها فيجرها من السرير ثم على الأرض دون رحمة! من الغريب أنها لم تجد في بدنها طاقة للصراخ، بل راحت تتباكى بصوت عالٍ كأنها للمقصلة ذاهبة، جسدها يكوّر السجاد في أثناء زحفه الإجماعي وقميص نومها يكاد يتمزق فوق كتفيها، وما زالت تتأوه بأنفاس مذعورة. نحو غرفة الأولاد تم اجترارها، وهناك، لفظتها القبضة على الأرض، أخذت وضع الجلوس بسرعة وقد بدأت في استيعاب ما يحدث لها، وتلقائيا راحت تحك رسغها المتألمين رغم أن جذعها يصرخ مكان السحل، ولم تزل نظرة الفرع من قسّمات وجهها.

- كنتي فين؟.

بصوت خفيض قال معتز، لكنه ما لبث أن صرخ:

- ما تنطقي يا كلبة!

بدأت تزحف الآن للوراء حتى اصطدمت بالحائط، ليس هذا معتز، إنه وحش بشكل زوجها! انخرس لسانها وهي تسمعه يقول:

- هاتتحبسي هنا لغاية ما تقولي حقي برقبتي! فكراني نايم على وداني؟ لا يا هانم! أنا صاحي، بناتك دول تنسيهم! وبعد ما أخلص منك هايعيشوا معايا، لأنك ما تستاهليهومش!

حينما التفت عنها متجها للباب ركضت على ركبتيها خلفه تناديه بلهفة ضارعة «معتز! معتز!»، لكن حينما أمسكت قدمه بيديها لفظتها تلك القدم بعيدا حتى آلتها:

- اخرسي!

راحت تبكي وأصابها ترتعش أمام فمها وهي تسمع صوت المفتاح من الخارج، لم يحنث بوعده كما فعل كثيرا من قبل، بل ظلت حبيسة الغرفة، ليل نهار حبيسة، بالكاد تسمع أصواتا باهتة من خلف الباب، لا تسعفها لتفهم أي شيء. لم تعد تدري كم يوم مرّ، فقدت الإحساس بالزمن، اشتاقت بناتها، وتخيلتهن يبكين ويسألن عنها. هناك من يدخل، يطعمها أو يسقيها، ثم يختفي! هناك من يساعدها على الوقوف، يخرج بها للحمام ويعيدها للسريير، هناك من يجس وجهها، ويحاول تحريكه من خديها، هناك من يشعل النور ليتأكد إن كانت حية ربما، ثم يغلقه مرة أخرى مع الباب فيتركها في ظلام مقيم. ودت لو تصرخ «إلحقوني!»، ودت لو تصرخ بأعلى صوت «اطلبولي أهلي! هاتولي بناتي!»، لكن شيئا من ذلك لم يحدث؛ لأن لسانها ما زال في غيبوبته.

وقفت أمام الشباك في قبوها الأسود، وراحت تصلي، صلاة بلا سجود أو ركوع، تلف رأسها بخمار وتبكي، تسأل الله أن يسامحها وأن يعيد إليها حياتها، فينفتح الباب من خلفها، لا ليس من خلفها بل من جانبها، تنظر نحو الآتي بضعف شديد، لا تستبينه، يلعب في وجهها من جديد.

• رفاء، رفاء، طمني عليكي يا بنتي،

في غرفتها عادت، على سريرها، والنور مضاء، وقميصها الأزرق ذي الأكمام المشمرة عليها. سمعتها تنادي خالتها وتخبرها أن رفاء أفاقت.

تقدمت خالتها نحو الغرفة، وقفنا حولها في هالة تكتم قلقها وتطلق سعادتها، راحت الخالة تحمد الله وتتصل بيوسف كي تطمئننه، تذكّرت معتز وارتعشت، وتساءلت كيف عرفوا ما حدث؟ وهالها خاطر سام بأنه سافر مع البنات بالفعل! سألت عما حدث؟ أين البنات؟ عند سهى؟ أريد أن أراهم!

• طيب يا حبيبتي أما تقومي على حيلك كده وتاخدي نفسك، عاوزينك ترجعي زي

الفل قبل ما جوزك يرجع...

• يرجع مينين؟

امتقع وجه الوالدة، قالت بقلق ماذا تشعر؟ لم تفهم رفاء وسألت عن أصل الحكاية، وذكرتها أمها أن معها مفتاح شقتها، وكانت في انتظارها لتأخذ البنات لكنها تأخرت كثيرا ثم أنها لم ترد! ثم أنهم جاءوا فوجدوا أنها لا تستجيب، فجاء يوسف بالطبيب وطمأنهم ألا خطورة، قد تكون «ضربة شمس» أفقدتها سوائل الجسد والوعي بالتالي.

أخذت نفسا واهنا بعينين ذابلتين وعقل مرهق وقالت:

• يعني...، يعني معتز لسا مارجعش؟

حدق يوسف إلى معتز في خليط من الدهشة والتوجس، وجد نفسه يقول إن زوجته مثل الفل، لكن معتز يعرف، إنما هو يتحدث معه عن البلوى التي تحلق فوق الرءوس، ضاقت عيننا يوسف، لم يزح خيط عرق نزل من جبهته فأحرق عينه التي أغمضها ألما، اعتدل في جلسته وقال:

- رفاء بتمر بأزمة.

تنهد معتز وجلس هو الآخر في موضع غير ذي مواجهة له:

- هي اللي بتمر بأزمة؟
 - أيوه أزمة، ست نشيطة وذكية، عدت نص التلاتين، بصت فجأة لقت نفسها بتكبر، وما فيش في حياتها أحداث، ولا شيء يخصها، مسئوليات وبس! أزمة كان ممكن يمر بيها أي حد فينا.
 - أي حد فينا؟
 - إيه؟ إنت مصدق صحيح إن الستات دول الأمومة بتمنعهم يحسوا بأي فراغ أو وحشة؟ بالعكس، الزمن غير الزمن ومراتك غير أمك.
 - بدل ماتحسسها إنها فأزمة، فكرها بمعنى كلمة أزمة! هي عندها سرطان عشان تقولي أزمة؟!
 - مش شايف إن دي قسوة؟
 - الحياة قاسية يا يوسف! بلاش كلام فارغ، أنا شقيان في شغلي عشانها وعشان البنات مش في الآخر تبقى فأزمة، في بيوت بتتخرب فلحظة جنان زي دي.
- سكت يوسف تماما، حرك رأسه موافقا، وحين خرج معتز فكر أن ما حدث أهون مما اعتقد أنه سيحدث.

أو هكذا ظن..

دخل خالد للمنزل محملا بالأكياس، طلبت منه زوجته إضافة لمشواره اليومي وهو عائد من العمل من إحضار طلبات العشاء- الفينو، والجبنة البيضاء فوق كل شيء- طلبت أيضا أن يمر على الخضري إن كان يريد صحن سلطة على الغداء كما طلب منها ليشتري الخيار والطماطم، وليته يمر على الكهربائي ليحضر أباجورة الولد التي يذاكر تحتها فلا بد أنه تم تصليحها. كان يسأل نفسه كيف كان أحمقا ووافق على كل

ذلك؟ الأكياس تكسر أصابعه والأباجورة نحلت إبطه، ثم إن معدته تقرقع من الجوع. من عام رآها صدفة من ظهرها على سلم العمارة، وكانت تحمل كيسا يشف علبة الحليب التي يشترونها من أجل الصغير، كانت ترتدي عباءة سوداء رخيصة، اعتقد أنها الشغالة التي تأتي لمساعدتها كل أسبوعين! حين فوجئ أنها زوجته لامها: «منظرك لا يليق»، استاءت للغاية فهي ليست ذاهبة لسهرة، إنها نازلة للمحل تحت البيت مجرد خطوات! أخبرها عن ضرورة أن تبقى صورتها طيبة حتى في البضع خطوات، واضطر أن يخبرها أنه اعتقدها الشغالة. في المرة التالية كانت ترتدي إسدال الصلاة، قال بهدوء كأكبر مغفل أنه يعفيها من النزول وسيتكفل هو بشراء لوازم البيت الصغيرة تلك، مغفل!

- الغدا فخمس دقائق يا مئة أنا ميت!
- خالد، عاوزاك في موضوع.
- خليها بعد الغدا بقولك ميت!
- الموضوع مايستناش!

نظر لها مترقبا، ماذا حدث؟ سيكون غاضبا جدا إذا ما كان الموضوع مجرد «خناقة» بين الولدين وزملائهما، أو درجة سيئة تظن منها أن المدرس متحامل على ابنها. أنزل الأكياس والأباجورة ودخل معها لغرفة النوم، قالت مرة واحدة: «أنا حامل». جن جنون خالد، وكان جنونه كالعادة داخليا، فلو صرخ وعبر عما في قلبه ستنهار تماما. جلس على السرير، يستعر من الغضب، يسألها كيف؟ لقد اتفقا والمفروض أنها تضع مانعا! جاء الحمل برغم وجود المانع، ابتسمت وقبلت خده: «هو انت في حاجة تقدر عليك؟»، لم يبتسم، مجاملة زائفة لم تحسن حتى أداءها بالشكل الذي يمكن أن يكون مؤثرا، قال منهزما: «مش هاينفع، مش هاقدر!»، انهارت هنا رغم كل ما أمسك نفسه عنه كي لا تنهار، فحرام عليه أن يتلفظ بذلك! لماذا لا يحمد الله على النعمة مثل باقي الخلق؟ ولماذا يضيع عليها فرحتها! ثم هل يكفر بإرادة ربنا؟!

واستمرت بهذا الشكل لدقائق لا يعرف عددها، كانت لديه القدرة جيدا ليصرخ ويقول إنها شخصا ليست في حمل طفل ثالث! إنها بالكاد تغرق في شبر احتياج الولدين، لكن مجيء الأولاد على عصبيتها وبكائها أسكتته.

نزل خالد من البيت ولم يكن يفعل ذلك أبدا، اتجه لأقرب محل شاورما واشترى أربعة أرغفة كبيرة والتهمها داخل سيارته، كان طعمها للأسف مريعا! ولم يهنا بمكونات السلطة التي وقف طويلا ينتقيها ويوزنها. هاجمه خاطر غريب هزلي لأقصى درجة جعله يضحك، أنها لا تحسن أبدا التصرف فيما يخصه، فرغم كل ذلك كان يمكن أن تنتظر بعد الغداء!

المعنى الحرفي لكلمة النيرفانا هو الإخماد، المعنى الأكبر هو إخماد الرغبة، إخماد الشهوة، إخماد الطاقة المبدولة الفانية في سبيل إسعاد لحظي، كي تتحول إلى طاقة متجددة لا تنتهي، تذهب بصاحبها إلى حالة التوحد مع الكون، حالة يطغى فيها الوجود الروحي على الوجود المادي، الوصول للنيرفانا يقتضي تحقق التأمل العميق، ويقتضي تحقق مبدأ الثواب والعقاب. الوصول إليها يعني الوصول للسعادة الأبدية، حالة النيرفانا عقيدة يؤمن بها البوذيون؛ لأنه يصعب على البشر أن يعيشوا من دون عقيدة، إنها تحميهم من الكثير من الإحباطات وتقيهم من مفزعة الحياة المادية، لكنها لا تصلح لأن تكون الملجأ وحدها...

ربما لذلك، حين تكالب الجميع حول شكري سرحان وهو يهرب، لم ينفعه دخوله للمسجد، ولا لجوؤه للشيخ، وخرج في النهاية لتلقي الرصاص في صدره.

اللص والكلاب

- في بيت دعاء كان الجو محتدما، قالت داليا تستحث صديقتها إن الصواب ليس في الابتعاد ولا التنصل! تجيب دعاء بغضب إن البحث عن الصواب لا يكون مع واحدة لا يهمها الصواب، تبدلت؟ أم كانت تخدعنا كل تلك السنين؟ يا له من شيء بشع!
- البشع إنك معاشرة واحدة لسنين طويلة وأول ما تقع في قفص الاتهام تحكمي عليها بالإعدام!
 - أنا عارفة أنتي بتدافعي عنها ليه، علشان ماشية على هواكي! عشان أخيرا ما بقيتيش أنتي الضايعة الوحيدة اللي فينا.

سكتت داليا متسعة العينين، ابتلعت ريقها، قالت:

- أنا عارفة إنني أضيع واحدة فيكم، بس على الأقل مش عاوزة أسيب صاحبتني عشان وقعت في أزمة، عاوزة أقف معاها، ماتخلاش عنها.
- أزمة؟ ودي بالنسبة لك بقى وبالنسبة لصاحبتك أزمة؟! طبعا، الفضا يعمل أكثر من كده!
- الفضا كارثة، ماتستهونيش بيه -قبل أن ترد- عارفة إنه لا يُقارن بالكوارث الثانية اللي ممكن الناس الثانية تمر بيها، لكن ممكن يدمر بيوت.
- مين الناس الثانية؟ داليا، إوعي تكوني نسيتي إنك اتجوزتي بعدي! إحنا زي بعض يا حبيبتي.

- للعجب لم تكن حدة دعاء سببا في اشتعال الموقف كما يحدث دوما، بل قالت داليا بتأثر إنها على حق، لقد أصبحتا مثل بعضهما، في الماضي كانت هي ورفاء من تتشابهان! تصران على صلاة الجماعة ولا تنتقلان من دون صلاة، تعنفانها حين تصلي معهما وقد توضع فوق طلاء الأظافر! تخرجا من ليلة تهجد وتربية باكيتان معا ثم تتصلان بها توقظاها كي تصلي ركعتين، فالليلة جميلة.
- فكري يا دعاء، إيه اللي حصل؟ تمثيل؟ طب والدعاء اللي كنتي بتقولي عليه مستجاب، برده كان تمثيل؟ وتوفيق ربنا اللي كنتي بتقولي إنه مكتوب لها من يوم ولادتها، برده تمثيل؟

تهدت دعاء، قالت بحاجبين متأثرين:

- توفيق ربنا ده اتبطرت عليه! ومش عارفة ما خافتش منه إزاي! نسيت إن ربنا في لحظة ممكن يخسف بيها الأرض.
- إحنا مش ربنا عشان نفكر نحاسبها، لكن إحنا صحابها، وممكن نفكر نقف معاها إزاي! مش بتقولي المؤمن مصاب؟
- مصاب بمرض، بفقر، مصاب في ولاده، مصاب بحاجة من عند ربنا مش حاجة هو اللي اختارها!
- تعرفي منين إيه المقصود بالإصابة، مش يمكن الاختبار الصعب ده إصابة؟
- مش عارفة ليه محسساني إننا بنتكلم في بنت خرجت مع ولد من ورا مامتها!
- يا دعاء! يا دعاء الاختبار دلوقت أصعب بكثير! انتي حرة، أنا قلتك اللي عندي وإنتي حرة.
- وانتي صحيح بتقوليلي أنا ليه؟
- يعني مش عارفة ليه؟ -لمعت عينا داليا هنا - انتي قلتها في وسط كلامك، ما ينفعش أنا أنصحها، أنا الضايعة.

تركته دعاء ويال العجب وهي مُعذبة! فمن الغريب جدا أن ترى بوضوح ملفت للنظر أن داليا -وأخيرا- تفوقت عليها وأصابت أمام إخفاقها. استعادت داخل سيارتها الصغيرة ذكريات قريبتها الشديدة في مواجهة داليا، استعادت أوقاتا من حياتها ظنت فيها -على سبيل اليقين- أن هذه الإنسانية مثالية في شخصها وحظها معا، وأنها من الداخل، شديدة البياض. وجدت أصابعها المرتعشة تطلب داليا تخبرها أنها خائفة، خائفة من الصد إن هي حاولت معها.

- أقلك كلمتك؟ مش عشان الحاجة صعبة ما نعملهاش، خلق الإنسان في كبد.
- ما كفاية الكبد اللي أنا فيه؟
- بس هيه تستاهل.

على عكس ما ظنت دعاء، رغم أنها تأخرت، لأكثر من شهر وهي تؤجل وتبرر لنفسها بطفلها، لكن في النهاية على عكس ما ظنت، وجدت رفاء وقد شاه لحمها الحريق!

على غير العادة وافق زوجها أن يذهب عند أمه ويترك لها ولصديقتها فسحة، وحينما أخبرها أنه سيأخذ الكبيرة معه، تأكدت أن رفاء ما زالت محتفظة بملكة اليُسر غير المبرر المصاحب لكل ما يتعلق بها من شؤون.

من دون كلام تعانقتا، كانت دعاء قد دعتهما لفنجال شاي تجديدا للأيام الخوالي، هذا ما استطاعت قوله! وكم فوجئت إذ سمعت صوتا تائها مختلفا تماما يقول: «يا ريت».

نام الصغير، والحديث كله عنه، لا كلاهما قادر على البدء أو الخوض. فجأة انقطع النور، وأخذت دعاء الصغير للداخل وخرجت تبحث عن الكشاف معذرة، قالت رفاء أنه لا يهم؛ فالقمر بدر. جاءت دعاء وجلست بجوارها، ولم يكن غريبا أن استلقت رفاء واضعة رأسها على حجر صديقتها، كم كانا يفعالنها في أزماهم الصغيرة فيما مضى.

راحت دعاء تسرح شعر صديقتها بأصابعها برفق، شعرت دعاء بدموع تبلل فخذها، بهدوء شديد تنزف رفاء دموعا، وتتحول للشهيق المكتوم، ذاب قلب صديقتها عليها، سمعتها تقول بين بكاءاتها بكلمات متقطعات:
والذين قست قلوبهم من ذكر الله!

بدأت رفاء تدمع وهي تذكر جيدا تلك الآية، كم ذكرتها لبعضهما وهما هادئتين مطمئنتين أنهما ليستا مقصودتين بها، فقد تسابقتا في حفظ الآيات المنجيات، وأوائل الكهف وأواخر البقرة، ثم معا تقولان أذكار الصباح في باص المدرسة، قالت دعاء:

• فكرك يعني ربنا بطل يحبك؟
• أكيدا!

قالت ذلك وقد بدأت تمسك بملابس صديقتها وهي تتلظى من الألم! وسكتت دعاء. انتظرت حتى تفرغ رفاء كل أوجاعها -إن استطاعت- تركتها تتقلب فوق حجرها بكاءً وآهات كمن به مس! هدأت أخيرا، استكانت بشكل لحظي، مرّ وقت لم تعرفانه، كل منهما في ملكوت موقعه، من تبكي الذنب ومن تبكي الخوف، كلتاها اقتطع سكينه ما لا يريد أن يتركها. من موقعهما سمعا المنادي، منادٍ ينادي بصوته الصوفي،

يذكر مبتهلا، صدح صوته في سكون الشارع المظلم، يصل بكل وضوح للبيوت،
وسمعتة رفاء...

«ربنا عصيناك، ليس استخفافا بعظمتك، لكن سولت لنا أنفسنا، قد جئنا بيابك، فلا
تردنا مخذولين».

قامت رفاء واضعة أصابعها على فمها المرتعش، ونظرت نحو دعاء التي فهمت فيما
تفكر، إنها رسالة! إنها رسالة كالتي ظننا دوما أن الله يرسلها لهما، عانقتها، عانقتها
رفاء بقوة وهما جالستان، وكانتا تتحركان معا يمينا ويسارا من هول مشاعرهما،
قالت رفاء بنفس الصوت الشاهق: يا رب.

على صفحة الفيس بوك رأت سماء مرة أخرى، فتاة الزمن القديم، الجميل. لا تشعر
بذات الشعور حينما رأتها قريبا، اختفى السخط، تبخر، وجدت نفسها مبتسمة، لكن
الفتاة كانت تستغيث، تطلب في ملصقها أن يدلها الدالون على متبرع رحيم القلب
تكون فصيلة دمه (O-). ترى مما تعاني هذه الملاك الطاهر الصغير؟ لم تجد نفسها
تريد الانسحاب، وجدت نفسها تشعر بحاجة للاتصال بها، ردت عليها بصوت داكن،
نبهتها الفتاة أنها كانت في عجلة من أمرها حين رأتها من فترة قصيرة، اعتذرت رفاء
وسألتهما ماذا حدث؟ عرفت أن ابنة أخيها «تعبانة»، وهالها الخبر، سنة ونصف تعالج
الفتاة بأدوية الصرع، لكنها مصابة بالذبذبة الحمراء، بالأمس فقط اكتشفوا ذلك، وتم
احتجازها سريعا في المستشفى وعلقت لها المحاليل وهي بحاجة ماسة لمتبرع
بالدم.

ليتها لم تسمع، ليتها لم تسأل، ليتها لم تقابلها من الأساس! سمعت أن عمر الفتاة اثنا
عشر عاما، غصبا رأت فريدة حبيبته الكبرى، غصبا غاص قلبها في صدرها كمدا وهي
تستمع. تعرف هذا المرض، يهاجم الجهاز المناعي نفسه في أجزاء مختلفة من
الجسم، النساء أكثر عرضة للإصابة به من الرجال، لسبب غير واضح! النابهون الأفاضل
يصابون به أكثر لسبب أيضا غير واضح! تقول سماء مبتسمة: حكمة ربنا، الحمد لله.

مياه الملح في عينيها تتحدى محاولة بائسة لإظهار الثبات، ماذا تقول؟ «ربنا معاكم»،
ماذا تقول كحمقاء الآن؟ وجدت طاقة غريبة التبستها في نشر الملصق على صفحتها،
وعلى كل الصفحات الأخرى الممكنة، وسهرة على موقع التواصل بحثا عن المتبرع.

في بيت أمها كانت سارحة، تتأملها أمها، تسألها على حين غرة لماذا كانت نائمة بملابسها حين جاءتها واكتشفت أنها مغشي عليها؟ تسأل لأنها تود أن تسأل من ساعتها وحالها لا يعجبها، لقد شمت رائحة تبغ من ملابسها. ضحكت رفاء ضحكة عنيفة وقالت باختصار إنها لا تذكر شيئاً عن تلك الليلة. قامت والدتها فاقتربت أكثر في جلستها وتكلمت بصوت حنون تسأل عن علاقتها بزوجها، تجيب البنت بشكل آلي: «عادي»، عادةً تأكد لها الأم أن أحداً لا ينال سوى حظه، وأنها لا تستطيع فعل شيء فهو قدر! لكنها غيرت أسلوبها، تستزيد الأم من نبرتها الرهيفة سائلة هل هي سعيدة؟ تنظر لها البنت متعبة: «ما سألتنيش السؤال ده قبل كده»، تضغط الأم برفق: «حالك مش عاجبني، أنا أمك حبيبتك».

كانت تلك اللحظة التي يتوق المرء لسماع أي أحد يعرض المساعدة ويمد يد العون فيها، فليست سعيدة بهذه العلاقة، انسكب ما بداخلها دون قطرة حذر، حديث مع أم...

- بيقرفني.
- بيقرفك؟
- بيقرفني يا أمي بشكل فظيع، زوره مليون بلغم طول الوقت!
- قولي له يفضيه قبل ما يجيلك.
- مش عارفة أقوله إزاي. مابحبش أبص لجسمه، مكعبل.
- كل الرجالة جسمهم مكعبل.
- مش كل الرجالة!
- وانتي كمان فجسمك كعبلة!
- أنا اتنيلت حملت!
- يا سلام! ده كلام ما يعمرش البيوت يا رفاء! الست الناصحة...، ثم ما تنسيش إنه راجل ملو هدومه و...، الأم ما يصحش تفكر زي المراهقين، المفروض...، البيت المخروب يبدأ بالتفاهات دي، انتي لازم...

الشعور بالندم يسحق كما يسحق الحذاء بعوضة، لكنه كان أقل بكثير مما شعرت به رفاء تلك اللحظة. كانت لتسكت، ودوما ما سكتت، لكنها ما عادت تطيق، وقفت ووضعت حقيبتها على كتفها تخفي شفيتها تحت أسنانها، تسألها والدتها بعينيها عما تفعله، قالت بهدوء:

- لما أوصل لدرجة غياب تخليني أصدق إني بنت بتفضفض بسرها لأمها، أستاهل أكثر من كده بكثير.
- أنا خايفة عليك.
- أيوه، عارفة، وبتحبيني؛ زي الدبة اللي قتلت صاحبها كده تمام.

- قالت رفاء بصوت غريب، يفضح ما يمزق مخها أنها تحلم بالسفر معه، الإسكندرية فكرة براقية، كي يحضرا افتتاح معرض مكتبة الإسكندرية معا ويرجعا على صلاة المغرب. ترغب بشدة أن تعيش يوما معه في رحلة طويلة، مبهجة، حرة، كأنها في الجامعة! تعترض داليا بقوة أن هذا جنون! من جانب لن يوافق معتز على سفرها لوحدها، ومن جانب من قال إن ذلك ليس خداعا؟ من قال إن ذلك ليس حرام؟
- السيارة مش خلوة! ما سمعتيش المفتي؟
 - ما تفهميني إيه الموضوع؟ اللي يسمعك لما قلتيلي خلاص أنا فقت، مايشوفكيش دلوقت.
 - مش قادرة يا داليا مش قادرة! مش عارفة أفهمك.
 - مدمن مش قادر يسيب الجرعة اللي اتعود عليها.

نظرت رفاء لها برهبة، ولو بعد مئة عام، ما كانت لتأتي بوصف أكثر مماثلة! سألتها بصوت مبحوح من أين عرفت؟ ابتسمت داليا بمرارة، كانت هذه قصتها مع حسام. تأففت رفاء ماسحة وجهها بأصابعها بضجر أكبر. صارحتها رفاء، حسام قد يكون خائنا لكنه يسعدك! رجل جذاب لأقصى حد وله كاريزما شرسة، تجيبها داليا أنه جذاب طبعا لكن للأسف كما يجذبها يجذب كثيرات من حوله، وهو لن يتوانى عن إسعادهن أيضا إن هن أردن. تصر رفاء: لكنك مع ذلك تسكتين؛ لأن وجوده يشعرك بسعادة لا تستطيعين تركه بسببها، لا تتحملين الحياة دونها، لكن معتز يضجرك! يقذفني بعيدا عنه بكل وسيلة.

- طول عمركم؟ ولا بعد ما عرفتي خالد؟
- أقسمك بالله إن الحكاية مش كده، فاكدة إحساسي اللي قتلتك عليه إني مش شايفة نفسي حلوة، فمش عاوزة معتز يقرب مني، معتز محسنني انه بيتفضل عليا عشان مايبعلقش على بوظاني بعد الحمل والولادة، أنا خالد محسنني على طول إني حلوة وجذابة، لأ! ده محسنني على طول إني أحلى من الباقيين، إن سني هو المرغوب، وشكلي هو المطلوب بالنسبة له.

تذكرت تلك الكلمات المكتوبات أن جاذبية المرأة الناضجة جسديا تتفوق بمراحل على الفتيات اللواتي في نظره كموز براق القشر لكنه لا يؤكل بعد. ومثلما كان هولها وهي تقرأ وهول الحدقتين البارزتين، مثلما حدث زلزال داخلي. سرحت رفاء لحظات، ما تريد قوله لن تفهمه داليا ولا بعد مئة عام، ولا دعاء يمكن أن تفهمها، ما بداخلها يستعصي على فهمها الشخصي! قالت لها أن تلك القصة لم تخطر ببالها لأنها دوما ما شعرت أنها كذبة كبيرة، لدرجة أن الخليفة تعايشت معها دون وجودها من الأساس.

- مش ممكن، أنا عندي رأي تاني!
- ما تتعبيش نفسك! لو قلتيلي إنك بتنبسطي بالموضوع ده هاخطر فبالى إنك خايفة أشمت فيكي، أو خايفة تبوظي صورتك كمزة مكتملة الأنوثة فنظري! وإذا اشتكيتي هايفضل فيه احتمال تكوني خايفة من الحسد وعاوزة تداري على شمعتك اللي هي شمعة فنظرك، لكن الحقيقة إيه؟ الله أعلم.

أخذت داليا نفسا عظيما تفكر فيما سمعت توا، قالت:

- طب ممكن تفسريلي ليه فيه ناس بتغلط لو كده؟
- أنا كنت بتكلم عن الست بس، مش عن الراجل طبعا، الراجل كده كده بيعرف ينسط حتى مع نفسه! والبنت بتنزلق معاه في الخطيئة لأسباب كتير، كل المقدمات بتسعددها مبدئيا، أي لمسة وانتي طالعة، تكون خايفة تخسره مثلا، أو خايفة ماتكونش في نظره ست لو اعترفت إنها ولا حست بحاجة، أو عاوزة ترضيه في وقت لو نطقت فيه بحرف هايدبحها!
- بصي أنا مش هجادلك عشان مابعرفش، لكن عاوزة أقولك، إن لولا الحدودة اللي بتقولني عليها كدبة كبيرة دي.. الستات كانوا ماتوا من زمان، ده أكثر وقت بحس فيه فعلا إنني ست. بغض النظر تماما عن أي شيء، العلاقة دي بتكمل الأنوثة.
- يمكن أنا مش ست!
- ويمكن معتمز مش راجل! لأنه لو راجل لازم يحسسك انك ست!

امتنت لها أنها تدافع عنها، تابعت رفاء:

- أرجع أقولك إحنا متاع، في الآخر إحنا متاع! ربنا ذكرها في القرآن - زين للناس حب الشهوات من النساء--ضحكت بسخرية - إحنا طلعلنا مش ناس!

في هذه اللحظة كانت داليا قد تأكدت تماما أن ثمة رتق شديد الاتساع يعربرد في نفس صاحبته، سألت: « انتي لسا متابعة غادة إسماعيل»، قامت واقفة وأجابت:

- الست لسا مسلمة على فكرة، إدعيلي.
- أنا ادعيلك أنتي؟ صحيح الدنيا اتقلبت،

أمسكت رفاء ذراعيها باستعطاف تشوبه حدة:

- انتي ليه مش راضية تفهمي؟ انتي أحسن مني بكتيرا! بكتيرا!

(٣)

إن لم أكن فهو لن يخون، أليس كذلك؟ فكله سلف ودين كما يقولون دائما ويؤكدون.

الأمر كله مقايضة، مقايضة ناجحة أو خاسرة حسب حظك. فالمقايضة الناجحة تعني أن المحاسن تستحق أن نحتل المساوي، المساوي حتمية ولا أحد معفي، لكن هناك من المقايضات ما يكون خاسرا، بمعنى أنك تأخذ القليل في مقابل أوقات تعاسة لا تحتمل! وليتك تستطيع هنا الرجوع أو التصدي أو حتى الوقوف، ستظهر الكثير من الموانع القاهرة، وربما لا تكون قويا بما يكفي لمجابهتها، ربما كل ما ستقدر عليه هو الدوران حولها، الاحتيال عليها، مع نيل نصيبك المحتوم من الأوقات التعيسة «إياها».

ربما لذلك، حين وجدت بسمه نفسها الزوجة الثانية، في الظلام، في المناسبات! وليست الأولى المباركة التي تحظى بالوقت كله والعيش كله «مال وبنون»، لم تجسر على ترك زوجها، لكنها عوضت نفسها بعلاقة مع الطبيب أسر ياسين، تكون فيها غير مأجورة ولا مدفوعة الثمن..

رسائل البحر

لم يلتقيا منذ زمن، جاء لها خالد برسوماته، أشكال مختلفة على ورق كالك لا يستعمل فيه سوى القلم الرصاص، لكن عاطفته الحية ظهرت في تلك الرسومات وتكلمت. أخبرته أنه حقا موهوب، ينكر، تصر! يقول لها إن الموهبة بحاجة لمن يهتم بها ويصقلها، تسأله ولم يهتم؟

- هي ما ساعدتنيش.
- هي غلطانة.

قالت برقة وسكتت كي لا تضع زوجته في تلك الخانة أكثر. بالأمس كانت غارقة في تفكيرها فيما قرأت، هذا اللفظ البالغ الدقة الذي أشار لما في نفسها بسهولة ويسر شديدين، «شوق إلى الشوق»، هي ببساطة تشتاق لشوقها له! مشاعر الشوق حارقة اللذة، ممتعة لحد لا يحتمل دون فعل ما.

في الصباح كانت تجلس على كرسيها في إعياء، أمامها شاشتها، تنظر لشريط الاستخدامات التحتي لجهازها، علامة الفيس بوك تلمع، تتوهج في عينيها، لا! لا

تضعفي! تقول لنفسها ذلك، فتقوم بعصبية من جلستها وتنظر نحو الشباك، ثم تقرر ألا تفكر، تقرر ألا تقول شيئاً لنفسها، ستطلب منه أن يلتقيا، تكاد تجن، فعلت ووافق، وها هما. كتب لها اعترافاً بالأمس لم ينطقه من قبل، قال إنه اكتشف وعلى حين غرة أنه لن يستطيع الاستغناء عنها، وأنها من أغلى ما في حياته، ظلت تقرأ الرسالة مرارا، ورغم ما حدث، لم تكن سعادتها عظيمة، بل ناقصة بشكل أساسي.

- سكت زافرا ابتسامة ناظرا للرسومات التي أخذتها منه، ازداد احمرار أذنه، قال:
• أول مرة تشوفي رسمي، في واحدة بقه أجمل من كل دول، بس ما قدرش أوريها لك.
• ليه؟
• عشان اتفقت معاكي اتفاق رجالة.

فهمت أنه رسمها وسكتت. بعد جلستها مع دعاء اختفت لأيام، كان يرسل لها ويسألها: «كويسين؟»، فتقول إنها متعبة، ولا تفسر، ثم بلغته أنهما يجب أن يقللا من التحوار اليومي، لأنها لا تريد أن تأخذه من أسرته، وتباعا لا تريد أن تقصر في حق أسرتها، بشرط أن يرد حين ترسل له، عدم رده يجعل الهواجس تأكلها أكلا. كان الذنب يزعجه من حادثة أصدقائه فوافق دون شروط، وكان خبر حمل زوجته كحجر عالق في بلعومه لا يمكن بلعه ولا يمكن تناسيه، فكان الهروب من دون شروط هو أفضل الحلول. انتعشت لتقبُّله وفي داخلها امتنان لعدم لومه ولو بكلمة. لم يخبرها أنه اكتشف أن تعلقه بها فاق كل توقعاته.

تحكي له عن مدير شؤون القطاع الجديد ذي التسع وأربعين سنة، الذي يبعث لها بياقات الورد على الخاص كل صباح، «هايف!»، تشكو له من وحلها، قطاع عام، يعني موت! وكل العاملين فيه أموات!

- ماكنتش أعرف إن فيه أموات بينبضوا بالحيوية دي كلها يا رفاء!

ابتسمت، قالت بمرارة:

- حيوية؟ ربنا يكرمك.
- أومال أنا أقول إيه؟ انتي عندك منصب ومكتب.
- مكتب وجهاز من غير حاجة تتعمل بيخليك خيال مائة، سيبك من السيرة الغم دي.
- غم ليه؟ مين قال إن الشغل مهم؟ فرصة تروحي بيتك من غير ما يكون دماغك اندوش في ميت موضوع، فرصة أكبر تبعد بيها عن قذارة البشر والأسافين والأحقاد وكل البلاوي دي! دي مسئولية، حد يعوز المسئولية؟ وبتروحي بدري، وبيضربوك تعظيم سلام.
- عندك حق -قالت وهي تحاول الابتسام - أنا خلاص أخذت على المواعيد البدري، أخذت على الاسترخاء.

- تقول ذلك من وراء قلبها. في العام الماضي أخذها معتز ليشتري حقيبة غالية لأمه في عيد الأم، اختارتها معه كما تحب أمه أن تختار تماما، كان سعيدا، سألته لم لم يفكر أن يشتري لها واحدة وهما في نفس المحل، كان مندهشا كأنها سألته عن اسم المادة الفعالة في دواء البروفين!
- أيوه بس عمرك ما حبيتي تلبسي براندات.
 - عمرك جبتي لي وأنا ما لبستش؟
 - عمرك ما قلتي!
 - عمرك سألت؟
 - من غير ما أسأل.
 - أديني بقول.
 - تمام لكن، ليه؟ أقصد، ماما مدربة بيانو في مركز دولي وبتقابل أهالي سفرا ووزرا، انتي مين هاي فهم عندك شنطة زي دي في المديرية؟

سكنت. حين عادت رأيت رسالة خالد التي جعلتها تبتسم:

- زي ما قلتك، انتي ملكة! ملكة عاوزة مملكة تتربع على عرشها.

كانت مغمورة من جديد في الشعور الساحر بتلك المملكة الخيالية التي لا يراها سوى بداخلها، تتمنى لو تنسحق لذرات داخل تلك المملكة على أن تتركها. سألتها معتز فجأة عن تحديثه، خرجت من الحوار وسألته منذ متى يسأل أحدهما الآخر هذا السؤال؟ للغرابة لم يعلق، نام باكرا وتركها تفكر.

هل يمكن أن يخونها معتز؟ تساءلت ببرود، قد توجد مساواة في المشاعر، مشاعر الرجل والمرأة واحتياجاتهم، {وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَ وَلَا أُمَّةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَا يُعْجَبُ الْرَجُلُ تَعْجَبَهُ الْمَرْأَةُ! لِأَنَّهَا كَأَنَّ تَصَمَّهُ شَيْءٌ آخَرَ كَثِيرَةٌ غَيْرِ الشَّرْفِ.

ثم راودها خاطر مفرح، أنه لن يخون لكن يمكنه أن يتزوج! هذه مصيبة أكبر؛ لأن البنات حملهن ثقيل، هي ابنة لأم مطلقة أمام الناس لكنها لا تملك ورقة الطلاق حتى، تركها زوجها دون رجعة ودون أن يتذكر أنها قد ترغب في الطلاق وهي لم تطلبه، ربما طمعا في أن تثرث منه شيئا، طمع يائس تماما كما يطمع أحد في أن يجد اسمه وقد ربح سيارة في مسابقة لم يشترك فيها! ذهب للكويت، وكان يعود لهم في أجازة الصيف محملا بالخير، مدرس لغة عربية عظيم، اختار لها الاسم الغريب الذي وصمها طوال عمرها، ثم ترقى لوكيل مدرسة ثانوية، ثم بدأ غيابه يطول مع إرسال النقود، ثم

بدأت نقوده تقبل، ثم اتصل وقال أنه سيعيش مع أسرته الجديدة ولن يعود، وسيدفن هناك. هكذا ببساطة. لم يتصل مرة واحدة أخرى، أما عمته الوحيدة فتبرأت منه تماماً بعد فعلته لكن وبعد؟ لذلك فخطر شديد أن يفكر معتز في الزواج.

في المقابل تمنى خيالها ذلك من دون قدرة على التنفيذ، أن تتزوج هي من آخر. قالت لداليا ودعاء مرة أنها تود بشكل مُلح أن تسألها سؤالاً محرجاً منحلاً! ضحكت داليا وقالت إنها مصغية، حاولت رفاء، حاولت، لكنها فشلت في تكوين السؤال السافل وسكتت. قالت دعاء: «قولي مرة واحدة واخصري»، فنطقت سائلة إن كانت المرأة -أي امرأة- بعد الثلاثين تحتاج بشكل ماس أن تحس بضغط رجل غير زوجها عليها، هكذا من دون فعل، ثقل الجسد بحد ذاته يكفي. قالت دعاء إن هذا كلام فارغ وبلا معنى، أصرت رفاء، هي لا تناقش الحلال والحرام الآن، هي تناقش مشاعر واحتياجات لا أكثر، قالت داليا بعد سكوت إنها نظرية تستحق النظر والدراسة، أما دعاء فاعتزت بشدة، هذا الحديث دون طعم كما وصفت، ربما لو ذكرت الزواج لكان شيئاً مفهوماً. نظرت رفاء نحوها برجاء ولهفة تسأل، فلو كان زوجها فهل تقبل النظرية؟ بعد سكوت وتسليط الصديقتين نظرات لاهفة قالت دعاء:

- أعتقد ممكن يخطر ببال الست فعلاً، تتجوز واحد غير جوزها، مجرد خاطر.
- «تجرب» واحد غير جوزها. قالت داليا.
- أستغفر الله العظيم!
- يا جماعة -قالت رفاء - الإطار الحلال مش هو موضوعنا دلوقت، الموضوع إن الإجابة أيوه! أيوه الستات ممكن يكون نفسها.

فكرت رفاء بصدق، نساء في مكاني كن ليترقبن أزواجهن، مشاعر الذنب خانقة، وهي تملأ الدماء بالوسواس «ماذا لو كان يفعل ما تفعلين؟»، والرجل غير المرأة كما راحوا يخبروننا دوماً، يقولون إنه الأضعف.. لكني أريده أن ينشغل بغيري، ليس عدلاً أن أفعل وأطلب منه ألا يفعل، وفي جميع الأحوال لا بد أنه بحاجة للتغيير كما أنا، ألم يقل ذلك أشرف زوج بنت عمته وبكل وقاحة؟ إن السبب في إمكانية تعدد الزوجات هو احتياج الرجل للتغيير، بعكس المرأة التي لا تألف سوى سكنها؟ سألته رفاء عن مصدر قوله هذا، قال بثقة:

- مش محتاجة كل ده، بصي على الطيور، على الحيوانات، حتى على النباتات، حبوب اللقاح بتطير وتغذي كل زهرة شوية.
- غريبة! -أجابت زوجته - ما العقرب بتموت الذكر بعد التزاوج علطول.
- لم يعجب الزوج هذا الرد ساعتها، فقال لها ودون خشية أمام الجميع:
- مين بنت الحرام اللي عاوزة تشبه نفسها بالعقرب دي؟

سكنت وسكت الجميع، لكنها تمنى لو تجيبه، تمنى لو تسحقه بحذائها! كيف يجعلها المخطئة في النهاية وقد بدأ هو بالخطأ؟ كيف يستحل أن يهز كرامتها دون أن يسمح لها بالمساس بكبريائه؟ بعد تلك الليلة قال معتز رداً على نقدها اللاذع:
• أنا شايف أنك بتكبري الأمور قوي، دي وجهة نظره.

زاد من غضبها رده، لكن ذلك لم يكن كل الأمر، فقد مارس هوايته الكريهة في تأكيد أنه هكذا يفكر الرجال، هكذا هم كل الرجال، لا أحد مثله هو، ليس فيهم من يشبهه، الرجولة الحقيقية شيء نادر، شيء صعب، شيء لا يقابله سوى المحظوظين.

«ربنا ياخذك يا أشرف!» هكذا فكرت وبغّل هادئ، فالقاتل يبدو ملاكاً بجانب السفاح أحياناً.

ذات الليلة دخلت على فيس بوك لتشكو له، تبثه همها وكمدتها، وتوعدت إن هو خنقها بردود مستفزة أن تغلق المحاوراة وتنام، لكنه لم يخيب ظنّها، ظل ساكناً وأرسل لها وجهاً ممتعضاً، ثم كتب:

• الرجالة دول صراصير!

ضحكت بصوت مكتوم، وأرسلت له وجهاً يضحك، لكنه كتب:

• مش بهزر، الواحد فيهم من غير الست ولا يسوى، ولا يعرف يستحمل الحياة يوم واحد، وفي الآخر مش عارفين يراضوهم بشوية حنية ولا حتى بكلمة حلوة ترضي خاطرهم.

وكان قوة ضاغطة كانت تعبت بوتين قلبها انطلقت فجأة، قال:

• وقريبك ده أنا لولا الملامة، كان نفسي أقوله يا بني بجم! لو نفسك تعيش في دور حبوب اللقاح يا ريت تسيب الوردة اللي متنيلة شايلالك البيت في حالها.

نامت قريرة العين، وردت عليه:

• وانت من أهل الخير.

(٤)

قالوا لها «أحمد كمال عبد العظيم» يريدك، قالت: «أنا؟ قال اسمي؟»، ضحك الساعي وقال إن اسمها ليس موضع خلط. دخلت مكتبه الكبير بارتباك عظيم، تذكرت منى زكي في فيلم (تيمور وشفيفة) حين دخلت للوزير تتعثر في السجادة! رجل في أناقته مسحة غير عصرية بشكل ما، لكنه يظل الأكثر أناقة، الأكثر نجاحا في نظرها بعد مبادرته الأخيرة المشهودة، والفاشلة مع ذلك. في النهاية لا يمكنها أن تنسى أنه من الكفاءات النادرة التي لم تنتقل من جهاز الخدمة المدنية للحاق بعقد خليجي مريح. سمعت صوت خالد في أذنها «مش لازم عشان ولاؤه، يمكن عشان جبنه!»، لكنها لا ترى أمامها الآن شخصا جباناً.

سمعتة يتحدث أخيراً بعد أن طلب لها عصير الليمون وأنهى مكالمته، سألتها عن أخبارها، صوته ذو الحشرجة مميز بشكل بالغ، سألتها عن زوجها وماذا يعمل، سألتها عن مهامها الحالية وهل تحب أن تعمل في مشروع منفصل؟ لكنّ عبأه إضافي! قال كلاماً لم تصدقه، كلام رائع تخشى أن تصدقه، قال إنهم بصدد البدء في مشروع خاص مدته تتراوح بين ستة وتسعة أشهر، وأن الوزارة مهتمة بهذا المشروع بشكل خاص، وهي مرشحة للانضمام في إدارة الجزء الخاص بـ(تطبيق الصيدلة الإكلينيكية في المستشفيات). قال إنه عرف باهتمامها بالمبادرة التي قام بها الصيادلة وقت الثورة، وأنه يقدر كفاءتها بعد أن سمع عن الكورسات التي أخذتها وأحرزت فيها نجاحاً ملفتاً. راح يتحدث عن إمكانية اعتذارها إن هي لم ترغب، وعن صعوبة اتخاذ القرار لجدية المشروع هذه المرة، وبدأ يسرد نقاطاً، ومحاوفاً رئيسية لتنفيذ خطة المشروع.

بصوت يكاد يكون هامساً من فرط الفجاءة قالت:

• ده شيء يسعدني يا فندم، طبعاً موافقة، ومستعدة من بكرة، لو حضرتك حبيت.

تهلل وجهه الأبيض واختفت الأمواج من جبهته العريضة، لمعت أسنانه البارزة من تحت شفثيه المبتسمتين، وكان تهلله في حد ذاته سبباً إضافياً للسعادة التي غمرتها.

• أنا قلت كده برده، على العموم لسا قدامك لحد أول الشهر، بس فيه شوية عقبات أحب ألفت نظرك ليها.

خرجت رفاء بنفس الجسد والملابس، لكن روحها قطعاً ليست هي! روحها لا تكف عن القفز داخل أطرافها من الفرحة! تكاد تطير، تكاد تحلق، تكاد تشعر بالسقف! فعلاً؟ هناك من يقدرها؟ فعلاً؟ يمكنها أن تمارس عملاً؟ يمكنها أن تكون نافعة؟ يمكنها أن

تقوم بفعل ما؟ فعلا هو سعيد بانضمامها؟ فعلا هو يعرف قدراتها؟ هناك أي بشر يقدر تلك القدرات؟

اتجهت لمكتبها وفورا بدأت البحث على الشبكة، ما يدب في خلاياها الآن بالتأكيد ليس دما! جاوزت الساعة الثالثة وهي منكفئة على شاشتها.
• كان فيه قرار وزاري بالفعل بتطبيقها سنة ٢٠١٢، نزل مع قرار إنشاء مركز للمعلومات الدوائية، بس طبعا انتي عارفة.

أجل، أعرف، حكومات مؤقتة ظلت تمسك بمقاليد الحكم منذ قيام الثورة، ثلاث سنوات! ثلاث سنوات ونحن نتأرجح داخل أرجوحة صدئة مفككة البراغي ولست أدري كيف صمد هذا الشعب المسكين كل تلك الفترة.

• التطبيق ده موجود في كل دول العالم، إحنا بالفعل متأخرين للغاية!

أجل، أيضا أعرف! أين أنت يا خالد؟ وأين جماعة «آسفين يا ريس» لأقوم بصفعهم واحدا تلو الآخر؟! نتأسف على فرق السنين الضوئية الخمسمائة الذي أنشأه في ثلاثين عاما؟ نتأسف على حياتنا التي باتت كمدفن للأموات؟ أم على ماذا أود أن أفهم.

• عارفة لو المشروع ده نجح، هايعمل طفرة في القطاع الصحي في مصر! ها يخلي الصيادلة يعملوا شغلتهم الحقيقية ويتدخلوا في تحديد البروتوكول العلاجي بجد، ها يكون له دور حقيقي داخل المنظومة الصحية مش مجرد صارف للدوا! كل ده هاينعكس على صحة المواطن المصري.

أجل! يا ربي! هل استجبت لي أخيرا؟ هل أثبت لك أنني أحلم بأن أساند هذا الشخص المسكين المغلوب بأي وسيلة؟ المواطن المصري، أساهم ولو بجزء تافه في هذا العمل الضخم الجبار، وهو تحسين صحته؟! وأنا؟ أن أكف عن الشعور بأنني ركام يجلس على كرسي، معقول؟

• الأول محتاجين نمد الوزارة بمعلومات عن عدد الصيادلة العاملين بالهيئات في كل المحافظات، عدد المستشفيات والسراير، عدد المرضى، ده صعب جدا لكن مهم جدا عشان نبدأ الخطة الفعلية للتنفيذ، وطبعا هانبدأ بالقاهرة.

ولو اضطررت للنزول بنفسي سأفعل! لا تقلق، لست نهمة للنهية، إنما أنا نهمة للبدء.

• أنا طبعا عارف إن صعب جدا تشتغلي مع فريق تحتك مايعرفكيش، لكن انتي قدها وقدود.

صعب، أجل صعب؛ لكن ماذا فعلت بالسهل؟ ضقت ذرعا حتى نخاعي! وأوقعني الضيق فيما لا يحمد عقباه.

- ولازم تعرفي إن بعد المرحلة الأولى هيرأسك مدير قطاع، أنا أقنعتهم بالعافية يسيبوا المرحلة الأولى لإدارة الشباب.

شباب؟ ربنا يجبر بخاطرك.

- اللي تحتك هيكونوا خريجين جداد من سنتين لتلاتة، وده حال كل اللي هيمسكوا وحدة لجمع المعلومات زيك.

فرصة! فرصة نخبر هؤلاء المساكين أن العالم ليس بذات التوحش والسوء.

- لو عرف التطبيق على مستوى المنطقة ينجح، هانبدأ في التطبيق الفعلي كدولة، وهناخد الفريق كله معانا، وطبعاً فيه مقابل مادي، لسا مش عارفه، لكن...

ألم أخبرك؟ لست أريد أي مقابل رغم ما نحن فيه! أريد فقط أن أشعر أنني أتنفس.

تهدت بصوت عالٍ كأن الفرحة في حضرته مباحة، أجل! طبعاً! قال إنه سأل عن مرشحات ومرشحين كثر، وهي تلائم احتياجاته، سنها لا صغير طائش ولا كبير متحجر من مدرسة عتيقة، ومجتهدة! ألجمتها المفاجأة، ووجدت نفسها تضحك، قال:

- ضحكتك محيرة، دي سعادة ولا وراها حاجة تانية؟
- سعادة! سعادة حضرتك، أنا أسمع عنك من زمان، شيء يدعو للفخر، دلوقت هاشتغل معاك كمان.
- مافيش داعي للمجاملات.

- أنا مش بجامل، قرأت مقالات حضرتك عن الفقر والتكافل الاجتماعي، عن العمل الفردي والجماعي، عن الطاقة المستهلكة، وضمير الأمة، والشباب والأمل، حبيت جملة «إنك بتحب الشقيانيين»، كل الكتابات دي حبيتها وعشقتها، ومقولتك الشهيرة عن العدل، إنه أعظم ما حير البشر، لإن بداية كل المشكلات في الدنيا تبدأ بالشعور بالظلم. فعلاً، من أول الطالب والمدرسة، الابن والأب، الزوج والزوجة، المواطن والوطن، كل العلاقات دي بتدور حوالين العدل.

ابتسم الرجل وأضاءت جبهته، قال باختصار:

- يلا بينا نبدأ.

بينما كانت مورفة تحكي عن الخبر، قالت لها شهيرة:

- قلتي له حبيت كل الكتابات وعشقتها؟
- يا بنتي ده علم، مش مراهق متصابي يفكر فلي بتفكري فيه.
- في جميع الأحوال كلامك ده مناسب لطبيعتك الجديدة.
- آه، بالضبط كده!

قالت ذلك وهي تلف خصلة من وراء أذنها على إصبعها.

- حضرتك لسا قاعدة؟

استفاقت على عامل النظافة الذي بدا أنه أغلق الأنوار في كل الدور وجاء ليخلي طرفه، قالت بعد أن نظرت للساعة أنها ستتحرك فوراً.

فور ما ركبت السيارة نظرت لها تفها الصامت، العديد من المكالمات من ابنتها البكرية، وزوجها، اتصلت بها لتخبرها أنها في الطريق، واتصلت به لتخبره أنها تأخرت بسبب وقوع حادث في الطريق. أغلقت الخط متسائلة عما جعلها تكذب، طبعاً لن تخبره حتى يبدأ المشروع بالفعل، ما زالت تخشى، تخشى أن يتبدل بين لحظة وتالياتها ويبدأ في تكسير كل مجاديفها مجدافاً، مجدافاً، أو في إلقائها داخل حفرة القلق من التقصير وتذكيرها بمسئولياتها خشية أن تنسأهم وتتعلق بعملها.

عادت للبيت وحالة الطيران لم تسكت عنها بعد، أعدت الطعام ومعتز في انتظارها مع الفتيات، وقامت رأساً بغسل الأطباق وهي تستمع لأغنية غير مرئية أو مسموعة سوى منها. تذكرت أحمد زكي وهو يركض صباحاً على أحد الكباري الألمانية بكل عزيمة في فيلم (النمر الأسود). فتحت الماسنجر في المطبخ خلصة، من أيام ترسل له «أين أنت؟»، وهو يرد ردوداً مقتضبة. حدثت بينهما مشادة أخرى حين قالت له أنه «دولجي»، ما زالت تتجاهل تلك النقطة الفارقة بينهما كي لا تفسد ما بينهما، أنها تؤمن بوجود الإيمان، وهو يكفر بكل إيمان.

تهللت حين وجدت ردّاً، فتحت بسرعة «أنا هنا انتي اللي فين؟ بتدوري على حجج منطقية تجادليني بيها بدل الهري؟»، أصيبت بإحباط، لعجبها تلاشى بمجرد تذكرها للمشروع الجديد.

الحياة ليست عادلة، لكن العدل فجأة يختار أناساً بأعينهم لينفذ نفسه ويشعر بلذة التحكم! الحاجة للشعور بالعدل هي حاجة للشعور بالذات، بوجود الذات، ووجود حق الذات، ووجود استحقاق الذات للمعاملة بالمثل حتى! الظلم يعني الدونية، بخلاف

القهر على الفقد، الظلم يعني أنك الأقل، أنك لا تستحق حتى أن تعامل بالمثل، لذلك فالعدل أساس الكون.

شعور مريح، الدونية شعور مؤلم والمساواة شعور مريح، لكنه صعب المنال.

ربما لذلك أخرج عادل إمام كل ما في جوفه حينما أحكم المحامي عبد المنعم مدبولي الخناق حوله هو وزوجته بادعاءات حقيرة مثبتة، كي لا يربح الاثنان شيئاً من المتفق عليه بعد قضاء مدة السجن، والذل، والهوان! أرادا العدل، فخرسا كل شيء.

حب في الزنازة

داليا تبكي ولا تستبين منها رفاء حرفا، فقط أن دعاء منهارة وعليهم الذهاب لها فورا. هناك كانت في حالة مزعجة من تكرار الإغماء وعبد الله خارج البيت يحاول إحضار طبيب، عرفت رفاء من داليا أن ابنتها الكبرى التي في مثل سن فرح نقلت للمستشفى صباح اليوم! البنت تبدو بحال جيدة ما الحكاية؟ همست لها داليا أنها تناولت شيئاً من أصحابها، شيئاً غير اعتيادي، مادة مخدرة، وذهبت للمستشفى بعد إغماءة.

سمعوا جارتها تقول إنها استفاقت، فور ما لمحت رفاء بكت! ذهبت وعانقتها، دمعت عينها، همست لها أنها ما دامت بخير، كله يهون.

- خير؟ هو فين الخير؟
- الله خير.
- بس أنا مطرودة من خيره!

قالت ذلك وأجهشت بالبكاء على كتف رفاء وهي تتعلق بها، قالت الجارة: «استغفري ربك!» فصاحت فيها رفاء أن تدعها تُخرج ما في نفسها! لم تكف الجارة عن قول إن ذلك حرام، وأن ذلك لأجلها لا لأجل أحد، «رُب كلمة تدخل صاحبها النار». وقعت دعاء مرة أخرى مغشيا عليها. جاء عبد الله بالطبيب، قاس ضغطها ولم يعجبه، سأل أن يحضروا حقنا، ومهدئا كتبه سريعا، تحرك عبد الله مسرعا، حاول الطبيب أن يدخل ماء في فمها، أصرت رفاء أن يخرج الجميع وفعلا، حاول الطبيب إفاقتها بالطرق بين حاجبيها بإصبعه، ثم أدخل عطرا في منخارها، ففتحت عينيهما تصرخ من الحرقلة، واهنة، مسكينة، مهترئة. قالت بضعف: «عاوزه أموت». تذكرت رفاء نهاية فيلم (العار)، صيحة نور الشريف «شقا عمري ضاع!». عانقتها رفاء بشدة، بكت رفاء،

وبكت دعاء. جاء عبد الله، بدأ الطبيب في حقنها، تأوهت دعاء، قالت رفاء بين دموعها: «إحنا آسفين، سامحيننا كلنا!».

بدأت دعاء تهدأ، قال الطبيب إنه انهيار عصبي، وكتب لها على مهدئات ليل نهار. كان عبد الله غاضبا لكنه كان وديعا، باتت تلك الليلة عندها وعلى كرسي بجانبها، لم تنظر نحو ابنتها الكبرى «رُدينة» حتى. عبد الله طبعا لا يعرف شيئا، ابنته أكلت -ويال العار- من الشارع فجاءها تسمم فاضطرت أمها لعمل غسيل معدة لها، ويبدو أنها كانت مرهقة بشدة في الآونة الأخيرة فانهارت. «حمالة الأسيية» تحمل السر في أحشائها ولا تكاشف الزوج الذي قد يهد المعبد! كلما استيقظت رفاء كانت تدمع بهدوء، هل أنا فعلا وافرة الحظ وأنتِ قليلته أيتها المسكينة؟

عادت رفاء في اليوم الثاني باكرا لتتجهز للذهاب للعمل بعد أن اطمأنت على استقرار دعاء، أصرت ألا تفوت يوما واحدا لكنها أبكرت في العودة. بعد رجوع البنات من المدرسة كانت الأم واقفة متحفزة، طلبت بحدة حقيبة فريدة، فاعترضت البنت سائلة:

• لماذا؟

• بقول هاتي شنطتك!

صاحت وهي تشدها من كتف فريدة وتفتح الحقيبة مخرجة الكتب، قالت البنت:

• مش من حَقك يا ماما دي حاجتي!

• لا يا روح أمك حقي ونص! وحقي أدوسك برجلي وقت ما احب!

نظرت الفتيات لبعضهن محدقات، قالت فريدة:

• طيب كتبي هاتتقطع! بتدوري على إيه؟

وكانت تحاول إثناءها مما هيح أمها أكثر!

• انتي خايفة من إيه؟ ها؟ وادي كتبك.

قلبت الحقيبة على الأرض وراحت تبحث بين الأشياء بعصيبة، فوجدت ظرفا، نَتَشَتْهُ الفتاة منها وركضت نحو الغرفة، تبعتها رفاء كثور، وهناك انهالت عليها ضربا كمجنونة، البنت متكورة على بطنها تخفي الخطاب ورفاء تضرب ظهرها بكلتا يديها كمختلة حتى استسلمت ومالت على جانبها تاركة الظرف، فأمسكته وهي تلهث، وفتحتة، ووجدت مجرد ورقة، وكان خطاب حب، كتب بال(فرانكو أراب) لغة الشباب الجديدة التي تقرأها بصعوبة!

Farida.. ana oltelek abl keda tedini forsa tania

كان هذا هو المفتتح، ثم كلمات متناثرة بالخط المزعج يشرح لها أن من تدعى «رهام» ليست مهمة بالنسبة له، لكن والدتها متحررة وتسمح لها أن تهاتفه في أي وقت، يشرح لها أن الملل يحتاجه أحيانا بشدة! فلا يجد سوى «رهام» لأن «فريدة» من المستحيل أن تهاتفه، لكن قلبه مع واحدة فقط هي تعرفها جيدا، وختم.

.Ba7ebek ya farida mo3taz!! Awiiiiiiiiiii....yaseen

نظرت لفتاتها، الصامته الوديعة! لقد كبرت، كبرت وتحب، وتتلقى خطابات، وهي تائهة في ملهاتها.

كتبت له رفاء -وهي تدمع- أنه لا بد أن يظل ما بيننا نظيف، اندهش! كتب خالد إنه نظيف! ماذا يفعلان على أي حال؟ يتكلمان؟ «كلا»، يجب أن يكون صادقا ويقر بالخطأ.

- افهمني، أنا عوزاك تفضل في حياتي، القرار أصعب عليا.
- أنا مش شايفك بتعاني!

نظرت لتلك الرسالة وهي تمسح تحت عينيها بأصابعها،

- ما تظلمنيش، لازم تساعدني.

حكيت له عن ابنة دعاء وعن ابنتها، تخيلت أن ما قالتها سيجعله يتفهم تماما، ظل غاضبا، أخبرته ما توقعته منه، أنه يفهمها، كتب:

- النهارده بنت دعاء تعيا بكرة ابن داليا هاتفرمه عربية!

...

- عايزه تعلمي كده إزاي؟
- يعني هتساعدني؟
- أنا تحت أمرك.
- أولا، بلاش الكلام الزيادة بتاعك ده، مش عاوزين تجاوز.
- وثانيا؟
- نتكلم عل موبايل، مش الماسنجر، بشكل محسوب.

- في اليوم التالي قالت داليا مندهشة حين بلغتها:
تليفون؟ التليفون يعني قرب أكثر؟
- لا، يعني سيطرة أكثر، وأوقات أقل، التشتات بيدينا فسحة، وجرأة.

تناقشت مع داليا بشكل مطول حتى أرهقها النقاش.

- قالي «إحنا بنعمل إيه يعني، مجرد كلام؟» وعنده حق!
- لا، ما عندوش حق، تقدري تتكلمي معاه قدام معتز؟
- ما قدرش أتكلم مع أي حد قدام معتز!
- قدام أي حد؟ قدام مراته؟ قدام صحابه؟
- يا داليا أفهميني، إحنا بنفضفض بس...
- بتشاركوا حياتكم سوا، انتو خلقتو نوع من العشرة ما بينكم، انتي فاكرة إنك لما تحكي عن جوزك يبقى لا غبار، وهو كمان فاكر كده، إنما الحياة اليومية لما نحكيها مع غيرنا، نبقى بنعيشها مع غيرنا، فاكرة المحاضرة اللي سمعناها سوا زمان؟ «رُفعت الكلفة، فزادت الألفة».
- هي الألفة حرام؟
- حسب الشخص.
- من غير ألفة نموت.

مع الفتيات أتمت الواجبات ومزاجها ما زال رائقا، ثم جاء وقت العشاء والنوم، وكانت الصغيرة جنى تلاعبها في أثناء الشاور قائلة:

- ماما، انتي حلوة قوي وانتي بتضحكي!

ظلت هذه الكلمة داخل رأسها وهي مستلقية بجانب جنى حتى يغلبها النعاس، ثم توجهت لفريضة وعانقتها وهي ممددة بجانبها، لم تتكلم فيما حدث، وكان ذلك مفاجئاً ومبهجاً للفتاة لأقصى حد. فكرت رفاء أن بناتها يفتقدن حقاً لمزاجها الرائق، ليبتها تستطيع إيفهامهن! فور ما وجدت رفاء، ستصبح قادرة على أن تجد كل واحدة منهن على انفراد.

كان العمل مع أحمد كمال عبد العظيم يستهلكها، كل يوم يوكل إليها مهام، ربما ليست لمثلها لكنها سعيدة، مرة أخبرها أن لديه تسجيل تلفزيوني وهو يستأذن أن تتأخر ليراجع مواضيع الحوار من تقرير الإنجازات الذي أعدته الأسبوع الماضي، لكنه للأسف لم يجد وقتاً كافياً ليدرسه بعناية، وافقت دون تردد. قال:

- هو أنا ينفع أناديكي باسمك على طول ولا لازم أقول دكتورة؟
- لا طبعا يا فندم رفاء على طول!

ابتسم راضيا، وأكمل حديثه عن العمل. لم يكن يثن على عملها، لكنه كان يثني عليها هي كثيرا، مثلا فلانة التي أثنت رفاء على عملها، قال «انتي أذكي منها»، وحين قالت له إنها حسدت نفسها بالعمل معه حيث أبلغها أنه سيسافر لشهر، قال «انتي محسودة على حجات كتيرة!»، أو حين أخبرته أن شهيرة هي صديقتها الوحيدة في العمل قال «إيش جابها ليكي؟! هي إنسانة لزجة، انتي حاجة تانية خالص».

هذا النهار حين دخلت تسأله عن نقاط محددة جمعتها لتستغل وقته المتاح وتستبينها منه، قال فور دخولها:

- مالك؟ فيكي إيه؟ مش طلتك!
- أبدا.
- أقعدي!

أطاعت، قد يبدو فظا للبعض، لكن ليس لها...

- حضرتك ما سمعتش عن القنابل اللي كل يومين؟

لف نصف دورة على كرسيه ثم قام، وضع كفيه فوق بعضهما كأنه يفرد ذراعيه سارحا، قال:

- بصي بقى، مش عاوزك تتابعي الأخبار.
- إزاي بس؟
- مدام طلعتي من أصحاب القلوب الضعيفة.
- هو فيه حاجة بتستخبي؟
- اسمعي اللي بقولك عليه، الحجات دي كل اللي ممكن تعمله تكئبنا وتقرفنا وتهبطنا.

تنهدت، قال أمرا: «اضحكي!»، ضحكت تلقائيا، فلم يبتسم وهو يقولها حتى، تابع:

- كده نعرف نشغل.

بانتعاش غير مبرر بدأت تفتح دفترها وتخبره بالنقاط، دون أن ينظر إليها كالمعتاد كان يحرك عنقه للأمام في إشارة أن تتابع، وحين تنتهي، وكالمعتاد أيضا، وأصابعه العشر داخل بعضها، يقول ملتفتا نحوها أخيرا: «بصّي بقى» ويبدأ في الشرح.

حين كانت تسمعهم يتلامزون عليها، ويلمّحون لانشغالها المفاجئ هذا، ونشاطها المفاجئ أيضا، تقول لهم إنها بصدد أعمال عظيمة؛ لأنها تقوم بمساندة رجل عظيم. لم يكن ثوريا أهوجا أرعنا، لكن روحه كانت ثورية، أمنت به. سألته مرة عن زوجته التي لا بد عظيمة لتكون وراء عظيم، زفر ضحكة هازئة وسكت.

في لقائها الأول بالجدد الذين سيعملون معها في وحدتها وجدت ما توقعته. ثلاث فتيات وشابين يجلسون بشكل مستهتر، يقفون نصف وقفة لدى قدومها، لا تعرف ولن تعرف أبدا إن كانوا متحمسين للعمل في هذا المشروع أم ماذا؟ التهنيدات وأنصاف الابتسامات أمام ابتسامتها وهي ترفع الجاكت عنها هي ما أخذت حتى الآن، بدأت باسمها ونظرت لكل منهم تسمع أسماءهم، آيات فتاة محجبة ذو الحجاب الطويل الفضفاض، كريمة ذات الشعر الكستنائي المعقود والقميص الأبيض ذي النصف أكمام، ودينا المحجبة حجابا عاديا مع جينز ضيق، إياد أبيض الملامح هادي القسمات، وسامر شاب قمحي كبير البنية. سألت عمّن دخل هذه الكلية -تعني الصيدلة- برغبة منه وحب، تضاربت الأقاويل بين كلمات «أكيد» و«اشمعنى» وبعض الضحكات الهازئة السائلة «هو فيه إيه؟»، لكنها قالت بصوت عالٍ: «ارفعوا إيديكم بعد إذنكم عشان أشوف»، رفع الجميع ذراعه بشيء من الاستخفاف وخفضوها سريعا، ابتسمت ابتسامة صفراء تنظر للمكتب، ثم رفعت رأسها وقالت وقد حافظت على استقامة ظهرها:

• بصوا، أنا عوزاكم تسمعوني كويس، أنا ماسكة الوحدة دي في المشروع ده لكن مافيش رئيس ومرءوس هنا، كلنا مسئولين عن نجاح المشروع وكلنا لازم نفكر إزاي نحقق النجاح ده، أومال ليه عينوا مسئولة؟ ده لمجرد إن المسئول هو اللي هيتأخذ برأيه لما يحصل اختلاف على نقطة محورية، ماليش دعوة إزاي الوحدات الثانية هاتتصرف لا مقارنات، لو النقطة مش محورية هانعمل Vote مش لازم رأيي اللي يمشي، كلنا هانعمل Search وننزل Sites، كلنا هانتعب وهانشتغل وهانفكر سوا بصوت عالٍ لما نواجه عوائق عشان نوصل لحل، أنا واخدة كورسات مأهلاني فعلا إني أقود الفريق، المسألة المرة دي مش سن وبس زي ما اتعودنا في القطاع العام، أنا مش أكبر منكم بكتير على فكرة...

قالت ذلك وهي تسرح خصلات وهمية فوق جبهتها بأصابع يديها وتبتسم بخفة، استطاعت أن تشعر بجليد يذوب، يا إلهي لقد راحت تدعو الله لثلاث ليالٍ كي يوفقها في هذا اللقاء.

- يمكن تكونوا بتسألوا نفسكم أنا بعمل كده ليه، الإجابة بسيطة، أنا مش ناقصني ناس أمارس عليهم سلطتي، إنما ناقصني شيء حقيقي أنجزه، وأنا متأكدة إن كل واحد فيكم مهما كان بيكره مكانه أو شغله جواه نفس الرغبة يعمل حاجة! إحنا ما صدقنا يكون فيه حاجة حقيقية ممكن نحققها.
- وحضرتك مصدقة برده إن فيه حاجة حقيقية في البلد دي؟
- تشاؤم مش عايزين، لو مش مصدق، أقولك تعمل إيه، إكذب على نفسك كدبة حلوة وصدقها، عيش جواها واشتغل على أساسها.
- وأبقى استفدت إيه بقی؟
- مش لوحدك اللي هاتستفيد، الكل تقريبا، إنت هاتبقى استفدت إنك هاتقول أنا حاولت وعملت لما ولادك يسألوك عملت إيه فحياتك يا بابا.
- هو حضرتك فاكرة إن الرئيس...
- مش عاوزة كلام في السياسة من فضلکم! ما ليش دعوة بالرئيس ولا بنيتته، اتكلمنا في السياسة لما شبعنا أظن، لمدة ثلاث سنين، ثلاث سنين من عمرنا مروا في ولا حاجة، فلما حد يقولي ممكن واحتمال ويجوز تحققي حاجة، هامسك فيه بإيدي وأسناني.
- هو فيه أي منطق، يقول إن أي حاجة ممكن تنجح بأيادي ملوثة؟ دي مش سياسة دي إنسانية. قال إياد.
- وحياة أبوك تفكك من جو أمينة رزق الرخيص ده. قال كريم.
- يا جماعة أرجوكم! -صوتها الغاضب أسكتهم- عندكم الفيس بوك ابقوا تبادلوا فيه آراءكم السياسية الإنسانية براحتكم! -نظرت لإياد- اسمعني كويس يا دكتور، يمكن يكون عندك حق، ويمكن ما يكونش! في الحالتين مين هاینجج الشيء أو يفشله؟ طبعا مش إحنا! أجابها.
- الله ينور عليك، مش إحنا، ربنا، إمته وازاي؟ لا أنت ولا غيرك يعرف، فلغاية ما ده يحصل، هانفضل كده نضيع؟ أسفة! أنا مش منهم، أنا هارفض الضياع، أنا عاوزة أنجح وأعمر.
- وييجوا في الآخر يسقفوا للرئيس ويقولوا بيحقق!
- اللي بيسقف هانفضل يسقف مهما حصل، مش هاوقف حياتي على حد! أنا مش بس بشتغل لنفسي، أنا بشتغل لربنا، ولمصر، ومقتنعة إن مصر تستاهل.
- أنا بقی مش مقتنعة! البلد دي ماتستهلش مجهودي، والشعب ده ما يستاهلش أتعب عشانه. قال إياد.

ساد بعض الصمت، قالت بوجه مختلف أخيرا:

- أنا متشكرة قوي إنك كنت صادق معايا من الأول، بعذر إنني مش هاقبل حد في فريقني مش مؤمن بالفكرة واسمه جه في كشوف المشروع لأي سبب -قبل أن يتحدث قاطعت - ما تخفش! مش هاحرجك قدام حد، تقدر تتفضل دلوقت

وماتجيش أي اجتماعات ثاني، وأنا هاتصرف بنفسي -نظرت للباقيين - أي حد مش مؤمن بالمشروع ده أو بالهري اللي بيقلوا عليه مشروع، يا ريت برده يقول من دلوقت عشان أعرف كام واحد هأيشغل معايا بجد!

قام إياد بعصيبة ودون كلمة وخرج، لم ترمش حتى وهي تنظر للباقيين في انتظار إجاباتهم، التزموا الصمت مما خفف عنها وطأة المواجهة غير الموفقة، فليس لديها أدنى فكرة عما ستفعله مع إياد هذا! كانت الحيوية التي اندفعت في دمائهم قد هبطت الآن، فقالت مبتسمة:

- قولتولي مين دخل صيدلة بمزاجه؟ -رفعت يدها فرفعوا معها، فقالت بصوت أعلى - قولتولي مين بيحب العلم الرائع اللي اسمه الصيدلة؟

بدأوا في الابتسام الآن وعادت الحركة لتزداد وهم يعلقون تعليقات ضاحكة من عودتهم لأيام الجامعة، قالت رفاء بخلفية مدروسة:

- أحب الفريق يكون بينه وبين بعضه رابط اجتماعي بالإضافة لوحدة الهدف والشغل، عشان كده هاستئذنكم، كل واحد فينا هياخد عشر دقائق يتكلم عن نفسه، من أول أهله، لحد هواياته، وطبعه، واسمحو لي أبداً بنفسي.

حينما خرجت طلبت خالد فورا، ودون الخوض في أي حرف يخص السياسة راحت تحكي له عما تم في اللقاء، ولمحت أن أحدهم لم يكن مستعدا وتم إقصاؤه وربنا يستر على النتيجة. كان خالد يشجعها، كان سعيدا بها «صوتك الحلو ده بيحلي حياتي»، فتضحك وتتابع، لكنه لا ينسى أن يندرها، الحياة ليست وردية!

- بس انتي قدها وقود.
- إنت متأكد منين؟
- ربنا بيدي التكليف على قد القدرة يا رفاء.

سألت نفسها إن كانت -أبدا- ستكف عن حب نطقه لاسمها.

كان معتز يشرب شايه ويراقبها، منذ أن جاءت وهي تتحرك بحيوية جذابة رائقة المزاج، وترتدي ثوبا قصيرا يبدو أنه لم يلحظ جماله من قبل، تلم شعرها في كعكتين عاليتين مذكرة إياه بكليب أغنية (العب العب العب).

- قوليلي، يعني بطلتي تقعي على الفيس بوك طول الوقت.

- الفيس بوك ده للفاضيين!
- قالت ذلك وقد غمزت، قال لها مبتسما: بقى كده؟ -حركت ذقنها تشاكسه- طب ما تيجي أقولك كلمة في بقبك؟
- قديمة.
- طب تعالي أوريكي الجديد.
- دفعته من بطنه وهي تقول:
- إتلم!
- فقال معترضا وهو يهمس:
- يا بت إحنا قاعدين في الأوتوبيس المكيف؟
- مش النهارده.
- غمز لها قائلا:
- هاتندم يا جميل.
- يبقى ما عندكش جديد يا فالج، بق وبس.
- على العموم أنا تحت الأمر.
- قبلت خده بسرعة ضاحكة، وتركته ذاهبة لغرفة البنات.

- بعد الشهر الأول وعقب الاجتماع الدوري تقدمت منها آيات معترضة، فهل حقا ستترك اسم إيداع معهم دونما عمل؟
- تنهدت رفاء، لأشد ما تكره هو أن تخذل أحدهم، هؤلاء الشباب المستمرون في تملك الطاقة بأنفسهم رغم ما يحيط بهم من خيبة! قالت إن اللائحة تجبرها، لكن الفتاة تتكلم عن العدل، وهذا حق! تذكّرها رفاء.. هي من طلبت منه ذلك، لكن الفتاة تبدو محبطة.
- اسمعيني كويس يا آيات، إحنا عملنا شوط مش بطل، مدير القطاع لسا مبلغني إن الجروب بتاعنا مسجل أعلى تقارير للنشاطات والتدريب لحد دلوقت، أنا مش عاوزة

حد يعطلني! مش عدل؟ منا عارفة لكن عدم العدل في الحالة دي أرحم بكتير من البديل.

- وإيه هو البديل؟
- يعني مش عارفة؟ -ابتسمت بمرارة - صحيح ده مشروع الريس نفسه يتحقق والوزير متابع شخصيا، لكن في النهاية دي حكومة! عشان اشتكي من إياد لازم يكون غلط أو هو اللي منسحب، وأنا الحقيقة مستغربة إنه ما اشتكنايش، طلع فعلا مش عاوز من غير ما يضايقنا، وعشان ندخل في متاهة إني استبعدته، هاندخل في تحقيق الشئون القانونية عشان استحقاق الزيادة ونقف لحد ما يلاقولنا بديل ده إذا اقتنعوا! عاوزة كده؟ عاوزة نقف لحد ما الكل يحقق واحنا واقفين نتفرج؟ ونفقد الروح اللي أخيرا لبستنا قدام الروتين الحكومي، ويا عالم هانقابل مين كان نفسه يرأس مجموعة ولا غضبان من حد وجاتله الفرصة يقرف فينا.

تعرفها، تلمحها وتعرفها على الفور، هذه السحابة من الكآبة والشعور بالعجز، تأتأت، وتنهدت مرة أخرى قائلة:

- آيات، سيبك من التفاهات دي، لما تنزلي وتبقي من أوائل الصيادلة اللي نفذوا المشروع وتعلمي اللي بعدك، هاتحبي نفسك، وهاتحبي الحياة.

حركت آيات رأسها بلا حيلة لها، ثم قالت:

- صحيح أنا ما اتمناش الموت لناس حتى لو بكرههم! لكن ده ما يمنعش إني بكرههم! أنا اخترتهم في الانتخابات، أهم حاجة عندي كانت الثورة -زفرت ضحكة ساخرة- ما نزلتش ثلاثين يونيو على فكرة، لكن مش حل المظلوم إنه يظلم باقي مخاليق ربنا معاه، يا فيها يا أخفيها.
- مع إني توقعت...

سكنت رفاء هنا حيث اكتشفت أنها لن تبوح بما جال في خاطرها، حركت رأسها بشكل عشوائي تبحث عن كلام، عاجلتها الفتاة تكشف، تعرف أن حجابها يبدو ملتزما فظنتها منهم! «للأسف يا دكتورة، غضبنا منهم لما نصبوا أنفسهم باسم الدين، بس عملنا فعلهم ومثلناهم في الدين».

البنيت عندها حق، اعتذرت منها بأريحية، وكانت مفاجأة مذهلة إذ حضر إياد. جاء ليقابلها وعبسته كالعادة خفية، ليست فجة ولا واضحة، للأسف مفعولها يبدو أقوى الآن! جلس أمامها وقد وجدت نفسها تشب بجذعها متحفزة وذراعيها فوق المكتب تسأله: «خير؟»، جاء يطلب أن يعمل معهم بموجب اسمه المنصوص في القائمة، سمع عن المكافأة ولن يقبل على نفسه مالا لا يستحقه ولم يبذل فيه مجهودا، هذا حرام.

- فهمت، عاوز تعطلنا، طب ليه؟ عشان سمعت أننا عاملين شغل كويس ومش عاوز تفيد البلد دي ولا عاوز تسقيف للريس مش كده؟
- مش مضبوط! لو عاوز أعمل مشكلات ماكنتش سكت من الأول، أنا احترمت رغبتك في الشغل، أنا مخنوق.
- بص يا إياد، مشكلتك حلها بسيط قوي، اتبرع بفلوسك كلها، ويبقى يا دار ما دخلك شر! خلاص إحنا ابتدينا وصعب نعمل تغيير، ده لو دي مشكلتك فعلا.
- أنا مش كذاب!
- نبقي متفقين.

مدت يدها لتصافحه وهي تقول ذلك، ثم سحبته حين تلكأ وفهمت أنه لا يسلم ومطت شفيتها كالمبتسم، الحمد لله قام وخرج.

حكى لخالد عن آيات وعما حدث مع إياد على أطراف أصابعها، وما خشيت منه كان، قال بلغته الساخرة التي تبغضها بغضا:

- وما قلتش للبنوتة الساذجة دي ليه إن الحياة الوردية موجودة في الجنة بس! وإن الحكم الدكتاتوري في النهاية هو اللي فيه الصالح؟
- يعني إيه؟
- يعني انتي في النهاية طردتي فرد ملوث شفتِ إنه هايغنك باقي القفص، نفذتي فيه حكم الإعدام اللي هو يستحقه، قانون العسكر اللي إنتو بتشتكو منه!
- أولا، أنا ما حكمتش عليه بالإعدام، أنا استبعدته وأقنعتة.
- عشان ما تملكيش غير سلطة الاستبعاد، وإقناعك ليه مجرد اتقاء لشره، بسبب سلطة وهمية هو ما يملكهاش غير بالصدفة.
- بلاش كلام رنان مالوش معنى! الديمقراطية دي هي عقيدتي، الناس دي ما اتعلمتش تعليم كويس عشان أمارس معاها الديمقراطية، ما عندهاش الحد الأدنى من الثقافة المطلوبة لده.
- ودي غلطة مين؟
- قبل ما تكون غلطتهم يا خالد هي غلطة نظام كامل مش شايف إن التعليم الجيد من أولوياته، لكن مش ده موضوعي، موضوعي هو العدل! إنت ما تظلمتش من المحسوبة قبل كده. أنا بقول للبنات كل شوية إحنا بلد فقير ما عندناش وما نقدرش وما نملكش، لكن الحقيقة إننا بلد غني، يبقى ليه؟
- وبفصاحتك وفطنتك يا باحثة عن العدل، اكتشفتي السبب؟
- لا، ما اكتشفتش، بس اكتشفت حاجة تانية.

استمر خالد يسألها ساخرا عن الشيء الآخر، لكنها أنهت معه المكالمة بعصبية وكانت تغلي، وامتنعت عن مهاتفته لأيام. أسلوبه أصبح ينقُرُها لأقصى حد، بعد أن ذاقت طعم الأمل وطعم الحياة ليست على استعداد لتقبُّل هذه السوداوية الساخرة، وهذا الانهزام غير المبرر في نظرها. كان هذا هو اكتشافها، خالد شخص جبان، إنه تحليلها الوحيد، كيف للفنان الذي يرى العالم بروحه أن تكون روحه تلك مسممة لهذا الحد؟ إنه لا يملك دليلا منطقيا واحدا يختلف عن الآخرين في هشاشته على دفاعاته المستمرة، وهجومه الضاري بالتالي عليها وعلى غيرها، إنه فقط شخص خائف، زعزع أحدهم أمنه، رج أحدهم سكينته، فأصيب بهلع مزمن هو ما يدفعه لهذه الهمجية في السخرية والحوار، ويدفعه لهذا الانحياز الأعمى والرؤية بعين الظلام، وطبعاً للاستسلام والخنوع.. لم تعد تطبيق تلك الصورة ولا مكان لها في نفسها بعد الآن.

سافر خالد لمرسى مطروح رغم أن مئة التي لا تقوى على المبيت بمفردها كانت متحرجة للذهاب عند أمها تلك المرة، فابنة خالتها هناك بعد طلبها الطلاق من زوجها وهي امرأة عقيم، ستنظر بحسد وغل وهي ترى ابنة خالتها مع طفليها وحامل! اعترض خالد «مش مشكلتي!» وأمام إصراره الذي لا تراه كثيرا رضخت. السبب الحقيقي في سفره كان أن يحظى بفسحة لنفسه. التقى صديقه هاشم وجلسا على القهوة، في أثناء الدردشة سأله هاشم:

- عملتها ولا لسا؟ خليك راجل وقول الصراحة وأنا مش هلومك.
- باينلي كده هاضطر أعملها، انت عرفت كام واحدة؟
- مش كتير زي مانت فاكر، ماتنساش إني مش عاوز أضحى بالمدام، حاجة تطير كده ولا كده.
- ما ينفعش نضحى بالمدام، ينفع بس المدام تضحى بينا.
- كل ده عشان الحمل؟ يا راجل فكها ربك بيرزق، ثم مادام ماضحكتش عليك خلاص.
- أنا مش بتكلم عن مراتي، ما علينا.
- الست اللي انت تعرفها دي لسا معاك؟
- ما اعتقدش.
- هي فوزرة؟ لسا بتعرفها، ولا لأ؟ انت بتحبها يا خالد؟
- إيه هو الحب؟
- هي طالبة معاك فلسفة؟ -ضحك- انت فاهمني كويس، ماهو ماينفعش تكون بتحبها ومش عايزها، وماينفعش تفضل تعوزها كل ده وما بتحبهاش وتفضل معاها!
- إنت مش فاهم حاجة خالص.
- لا فاهم كويس، انتو متعلقين ببعض انتو الاتنين ومش قادرين تسيبوا بعض عشان مش لاقيين مع أجوازكم اللي بتلاقوه سوا، بس انتو الاتنين أجبن من إنكم تطوروا

- العلاقة، لأن لو واحد فيكم عاز الثاني هيستجيب ولو بعد حين.
- كنت فاكر زيك كده، لكن طلع كله وهم، كل شوية تبعد بشويش، مش قادر حتى أحدد خوف على نفسها ولا خوف من إيه.
- طب ما تسيبها وتريح دماغك من الإشكالية دي.
- ما عنديش حتى قدرة أتصور حياتي من غيرها تكون إزاي؟
- طب ومراتك؟
- في أسعد أيام حياتها - ضحك - اتخلقت عشان تكون أم، أم وبس بغض النظر عن أي حاجة تانية، أنا في حياتها عشان أكون مصدر حلال للحيوان المنوي.

قالها خالد وقهقهه حتى احمرت أذناه، وأضحك صديقه معه، تابع بين ضحكاته:

- يعني لو بنوك الحيوانات المنوية دي حلال ما كانتش بصت عليا أساسا.
- ما تكبرش الموضوع، أكيد لأ.
- عندك حق! تصور عندك حق، مين اللي هيخدم ويساعد ويوصل ويصلح، لا طبعا هو أنا ضروري جدا في حياتهم، طور في ساقية، حتى لقمتي يا أخي ثقيلة على قلبهم.
- توقف خالد عن الضحك وأمسك عظمة أنفه العليا كأن الضحك أدمعه، قال صديقه:

- أكيد مراتك بتحبك، دي بس ساعة شيطان، والطفل التالت ده جه عشان يربط ما بينكم أكثر.
- انت مراتك بتطلبك؟

سكت هاشم قليلا ثم قال رافعا حاجبيه بعد أن تأكد أن السؤال المقصود هو المفهوم.

- طبيعي.
- لا، مش طبيعي، عمرها ما طلبت! تصور، سبع سنين جواز وعمرها ما طلبت، مش بقولك، أنا مجرد أداة، وبعدين يجي يقولك مجتمع ذكوري!
- ذكوري مين يا بابا ده كان زمان، هو لو ذكوري كان زمني مرعوب من مراتي كل الرعب ده؟ يا عم ده أنا فكرت أروح داعش عشان يبقالى ميت ملك يمين!

تضحك الرجلان، وقاما للتمشية على الكورنيش، وكان هاشم يقول:

- المهم، انت دلوقت استويت، صدقني لازم مزة تطري حياتك الناشفة دي، الموضوع مش صعب زي مانت فاكر.
- باينها كده يا هاشم، قول، قول.

رئيس القطاع ذو التسع وأربعين سنة، «الهايف» الذي يرسل لها ولكل من قد يعرف باقة ورود وكلاما معسولا على الخاص عله يجد استجابة، يريد مقابلتها اليوم. ذهبت لمكتبه وليس لديها فكرة عما يريد، قال كلاما مبعثرا عن أنه سيت رأس لجنة لتقييم العمل على المشروع في الوحدات الصحية التابعة لمحافظة الجيزة، ظلت صامتة تسمع إنجازاته حيناً، وعما يحبه ولا يحبه حين -وكان ذلك يعنيها في أي شيء- وعن شخصيته ذات الوجهين، الطيب الحنون والشرس الصعب! تذكرت أنها كانت تسمع كلاما مشابها في الجامعة من الدكاترة مهزوزي الشخصية، فذو الوجهين لا يقول أبداً أنه كذلك، أما ذو النصف وجه فإنه مذعور من أن يكشف أحدهم ذلك، فيقرر أن يقتدي بأهم صورة رآها في حياته، ويظل يردد كيبغاء أنه ذو وجهين! بعد طول انتظار ابتسمت المرأة وسألته عن المطلوب منها، لأن كلامه مبعثر، ولأنه لم يذكر قراراً منصوصاً واحداً، أو مصدراً للسلطة التي ينطلق منها، فقد فهمت أنها غير ملزمة بما يقول. الرجل الغبي جالس بأريحية يضحك من دون داع ويخبرها أنه سيتولى مكانها للشهر القادم حتى يتسنى له التقييم عن قرب وبشكل أكثر فعالية عن أداء الفريق، سألت رفاء -متردة- إن كان سيفعل ذلك مع كل الفرق؟ فأين الوقت الذي يلائم كل ذلك؟ عرفت أن فريقها وحده من سيجرب معه تلك الطريقة المبتكرة! هو يريد عمل التقييم على مستوى من الحداثة والجدة! سألته إن كان أحد آخر من رؤساء اللجنة سيقوم بنفس الفعل؟ لمّح لغباء سؤالها، فقد أشار حالاً للابتكار والحداثة، وهما خصلتان يتمتع بهما وحده دوناً عن غيره. كان أسلوبه يستفزها لأقصى حد، لكنها تماسكت وسألته أخيراً ما الذي ينقص طريقة أي لجنة لتقييم أداء أي فريق لأي مشروع، فهب فيها صائحا! هل هذا تحقيق؟ وضّحت له بهدوء أن تغيير مدير المشروع ليس أمراً هيناً كما يظن، وقد يعرقل اكتماله.

• واضح إن عندك هوس بإنك تسيطر، عاوزة تحققي شيء في دماغك! وطبعاً ده مش لله وللوطن! جالك مرض عبد الناصر ونفسك يشاوروا عليك؟ -ضحك بعنف - حقك! مديرة مشروع صغيرة في السن! وجودك أصلاً غريب وأكد جه غلطة، أو الله أعلم، إنما يا شاطرة الكبير فيه اللي أكبر منه، فاهماني ولا مش فاهماني؟

«أنا ما اسمحلكش!» هذا ما صرخ بداخلها، تذكرت عادل أدهم في فيلم (حافية على ذكر من ذهب)، لكنها لم تهتز، قالت «حضرتك خلصت؟» -وكانت متوجسة هل سيرى في ذلك الضعف أم القوة؟ اندهش هو وصمت بعينين تضيقان، وقالت متشجعة من دهشته:

• عاوزة فعلاً أحقق شيء في دماغي، نجاح المشروع، صحيح أنا مش مضطرة أوضح نيّتي أو أدافع عن نفسي لأنني مديرة فعلاً، لكن حضرتك رئيس قطاع كبير، ورغبتك

في الحادثة مبهرة، إنما من غير قرار منصوص ولا لائحة، مش ها قدر أنفذهها، لإني مش هاعرف أنفذهها، ماتنساش إني ماضية على إقرار.

لم يجبهها الرجل، رفع سماعة الهاتف وطلب من أحد ما قائمة بأسماء وأعداد المسؤولين عن تنفيذ المشروع في محافظة الجيزة وكل الطاقم، وتقارير مفصلة عن نسبة الإنجاز حتى الآن وتقرير بكل العراقيل والمعوقات و، و، و...، فهمت أن عليها ألا تنتظر، فهو يحاول إيجاد وسيلة للهروب تحفظ ماء وجهه، وجدت نفسها تقف وتساله «أمشي؟»، أشار بذراعه أنه يمكنها الانصراف وكأنه لواء يجلس في مكتبه في مديرية الأمن، ثم وضع كفه على الهاتف وقال إن للحديث بقية، لم تتمالك ابتسامة على شفيتها وهي تهز رأسها أن «حاضر» وتخرج.

في طريق العودة أسرع لطلب خالد لتبته ضيقها وغضبها، المتخلف! الضائع! المبعثر، «المدهول»! يقول إن وجودها غلطة! يتكلم عن الحادثة من يلبس بذلة جدها، والابتكار صاحب باقة الورد! يهدئها خالد ويبيدي إعجابه «سحقتيه بشويش وبهدوء»، تنتشي طبعاً لمديح خالد، هو كالعادة يضع يده على شيء ما ليحييه فيها، لكنها تفور، لا حق له أن يهينها! أن يكلمها كتلميذة، لماذا لا تعترض، تصرخ، تشكوه!

- تشتكي رئيس لجنة هاتقيم إنجاز المشروع اللي انتي جزء منه؟
- أكيد ليه كبير! مش أحسن ما أكرم غيظي وأموت؟ أنا ليه جبانة! مش من حقه!
- يا رفاء - قاطعها - بطلي النعرة الثورية دي! ما جابتلناش غير النكسة، أهو ده عيبك الوحيد.

- عيبك انت الوحيد انك شايف في الاستسلام حل!
- انتي عارفة أنك لو كنتي اشتكتيه أو رديتي عليه كان ممكن يتسبب في استبعادك انتي وفريقك كمان.
- هي دي المشكلة! إنا مضطرين نقبل الذل عشان نعيش.
- إحنا مضطرين نقبل أي حاجة عشان نعيش - تأففت، فتراجع - بُصيلها بطريقة ثانية.. العقل سلاح عشان تعدي الموجة، لما توصلي وتحققي هاتنسيه خالص المتخلف ده، وهاتنسي أي حاجة ذلتك زي ما بتقولي.

سكنت رفاء، أرضاها كلامه، صحيح أنه هزمها وانتصر لمنطقة الذي تكرهه (حزب الكنية) لكنها لا تريد أن تلوم نفسها طول الليل على عدم ردها أو ضعفها على أي حال، سأله على حين غرة:

- هو مش المفروض كان يناقش عبد العظيم بتاعك ده؟
- فعلاً! عشان يعرف يقوله جيت غلطة إزاي؟
- ما فكرتيش تلجئي له ليه؟
- لأنه، لأنه مشغول جداً ومش فاضي للتفاهات دي؟

• تفاهات؟ يعني مش ذل ولا حاجة؟

انتزع منها ضحكة، وحولت دفة الموضوع حتى وصلت للبيت، لكنها تساءلت، هل كان أحمد كمال عبد العظيم سيقف في ظهرها؟ سرت قشعريرة في سلسلة ظهرها من الفكرة، ثم رفضت أن يكون لهذا الرجل تأثيرا سيئا يسلبها السعادة التي تنبض في قلبها كلما فتحت عينيها في الصباح وتذكرت ما تقوم به.

(٥)

حين يحدث التجاذب والاتفاق الضمني والظاهري بين طرفين؛ هذا لا يعني فقط أن قطبي مغناطيس التقياء، ولا فقط أنه اتقدت الكيمياء الجبارة فوق نقطة ما على الأرض، بل يعني أيضا أنك شخص سوي، محبوب، تصلح لأن تكون طرفا، والأهم أن لك رفيق، مؤيد، ظهر يحميك ولن يتركك لتتعري أمام أحد...

ربما لذلك كانت صدمة هند صبري عنيفة، متوحشة، حين وقفت حائرة في قاعة المحكمة، تتلعثم أمام الادعاءات القاهرة التي هاجمها بها المحامي، وكان هذا المحامي ينوب عن الحبيب! شريف منير، السند والظهر والثقة التي هُدمت، فتخلخلت الأرض..

التوربيني

كان هذا صباحا معتدلا، حين كانت جالسة في مكتب أحمد كمال، تشجع نفسها أن تذكر له ولو على سبيل القول ما حدث من رئيس القطاع، لا هو ولا أحد آخر كلمها في أي شيء منذ لقائه بها. سمعته يقول:

- أنا وقعت في إيدي مقالة عن السينما باسم رفاء حلمي، ولقيت صورتك.
- احمرت أو اسودت لا تدري، شعر بخرجها من نظراتها الهاربة التي اعتادها، قال:
- مش عيب الواحد يكون عنده هواية مهتم بيها، بالعكس! منا قلتك إنني بتدرب سكواش بعد الظهر.
- بس اللي أعرفه إن الموظف اللي مش كل حياته وتركيزه للشغل مش مرغوب فيه.
- يعني يا خي بتشتغلي في رئاسة الوزرا؟

أجفلت من قوله هذا، كأنها لم تتوقع مثله منه، استوعب ما تفكر فيه تماما وقال بسرعة:

- لا مش عندي الكلام ده، أنا هاعمل إيه بموظف عاوز يرضيني بس مش راضي؟ مش مبسوط من جوه وعطاؤه ناقص.
- حضرتك المفروض تفتح شركة خاصة، تعمل فيها مشروعك الخاص.
- وبلدنا نسيبها لمين؟ طب بصي، اسمعي التسجيل ده كده.

مدت يدها تستجديه، فأعاد هاتفه على مكتبه وقد كان بصدد فتح رابط على يوتيوب، قالت له معذرة أنها بعد ما رأت الرابط الذي أرسله لها الأسبوع الماضي «حدث في مثل هذا اليوم» وكان تسجيلاً عن حادثة البطوطي الشهيرة التي راح ضحيتها (٣٣) من خيرة العسكريين المصريين، وثلاثة من علماء الذرة، والذي أصبح سببا في أن فهم العالم أن كلمة «توكلت على الله» تتضمن وجود خراب أو انتحار أو قنبلة بشكل ما!، بعدما رأته بكت حتى تورمت عينها.

- لازم نعيش في واقع بلدنا عشان نقدر نستعد للي جي ونتسلح بالفهم، إحنا طريقنا صعب وطويل.

«منتهى سروري أن أجمع معك في أي شيء، وإن كان مجرد كلمة إحنا»، هكذا فكرت، قالت لشهيرة:

- أنا دورت كثير، باختصار، أنا بحبه مش أي كلمة تانية! بقدره، بحترمه، بجله، كل ده مش بيعبر عن اللي جوايا، أنا بحب أحمد كمال عبد العظيم! بحب وجوده، بحب كيانه، كده زي ما هو، مالك؟ بتبصلي كده ليه، ده شعوري.
- ما بتبصلكيش انتي، بتبصلي أنا.

التفتت بهدوء نحوه وقد سمعت دقات قلبها بوضوح، ابتلعت ريقها، تحركت شفاتها بعشوائية، وأصدرت أصواتا تصلح لبدايات جمل، لكن شيئا لم يفلح في النفاذ خارجهما. لم تنظر نحوه خلال ذلك تانية واحدة، لكنه كان قد اختفى، منعا لإحراجها ربما. سألت زميلتها بارتباك منذ متى وهو هنا؟ وعرفت أنه هنا منذ «بحب أحمد كمال عبد العظيم»، عثفتها بقوة على سكوتها لدى دخوله!

- انتي اديتيني فرصة؟ دخلتي فدوامة العشق الممنوع.
- على العموم هو عارف إنني بحبه، وفاهم إنني ما اقصدش اللي في دماغك.
- مفهوم الحب الجديد بتاعك ده مش موجود في مصر يا رفاء، انتي كده بقت تجيلك (هوپا)!

سكنت رفاء وكانت تشعر بضيق شديد، سألتها عما ينبغي فعله، قالت شهيرة باختصار:

- اعتذار وحزم وتكشير؛ لأنها مش حاجة عادية.

دخلت رفاء المكتب بعد أن طرقت وأغلقت الباب خلفها، مستوية الملامح، ذلك الوجه الذي يزعج معتز كثيرا. حاولت بدء الحديث وكان ينظر في أوراقه بانتظارها دون أن يتحدث ودون أن يساعدها.

- أنا عاوزة أوضح...
- مش محتاج توضيح أنا فاهم، بصي، أنا راجل بحب الحب!
- لا يكف عن مفاجأتها، تبدلت ملامحها ونظرت لقوله برغبة في الاستزادة والفهم، تابع:
- أنا بحب بلدي، بحب شغلي، بحب مراتي بحب ولادي، بحب الإسكواش، بحب موظفيني. I love what i do, فأنا فاهمك كويس.
- يعني حضرتك تشبهيني؟
- انتي اللي تشبهيني!
- ضحكت من نظرتة الشامخة، قال:
- أهو مثلا ضحككتك دي، بتفتح نفسي على الشغل، يلا نشتغل.
- خرجت غير ما دخلت، مسرورة مبتهجة، تشتغل بشغف!

قالت لمعتز إنها يجب أن تزور دعاء، ذكّرتها داليا «أسألي عليها». عاتبته لغيابها المفاجيء، تقول إن ابنتها رديئة بخير والحمد لله، مجرد أصحاب سوء ضحكوا عليها، تعدلت أحوالها من ساعتها، لكن دعاء طبعا تعد خطواتها.

عانقتها بقوة، جلسنا نتحدثان بشوق، قالت لها بمجرد أن تعودني رفاء التي أعرفها تورف الدنيا! رديئة، تلك الابنة كانت دوما تنظر لرفاء بإعجاب، إعجاب طبعا يقلب المواجه، فليس هذا حجابا وليس هذا تدينا، قالت لها رديئة مرة: «طنط أنتي شيك أوي»، شكرتها ثم قالت «بس أنا للأسف محتشمة»، نظرت لها البنت مذهولة! ردت عليها أنها يجب أن تعترف على الأقل، هذه حشمة وليس حجابا، وتتمنى من الله أن يهديها للأفضل، ربما يوما ما. رفاء تشعر بواجب نحو دعاء، أو ذنب نحو التأثير على نمط حياة دعاء وأسرتها لمجرد أنها صديقتها. لم تعد تريد إغاضة أحد، وما كانت تسخر منه بالأمس هي لا تسخر منه اليوم. الأكمام الإضافية تحت أكمام طويلة أصلا، والحجاب الذي يغطي ثلث الجسد، والبناطيل الواسعة «المهلهلة» والوجه الخالي من أي مساحيق، لا تريد القيام بذلك لكنها لم تعد تحتقره.

حدثتها رفاء عن العمل وهي محلقة، قالت دعاء إن هذا التحليق يكاد ينفجر من وجهها، «فرحة دون شوائب» قالت دعاء ذلك حرفيا، وأشارت لوجهها يعني أن الحبوب اختفت! سألت دعاء: «نصلي جماعة؟»، وافقت رفاء مبتسمة. فيما مضى لم

تكن تسألها، كانت تقول هيا لتتوضأ رأساً، الصلاة مع آخرين تقلل التباعد بينهم. انتهى اللقاء الذي كان جميلاً، على الباب سألت دعاء:
• انتي لسا بتكلميه؟
• ما تقلقيش، الموضوع ده خلص خلاص.

تركنتها مبتسمة. لا تنفع الصراحة كاملة مع دعاء. فوجئت بعبد الله على السلم، نظرت للأرض وأجابت سلامه «وعليكم السلام»، وجدته يتلأ ثم عرض عليها أن يحمل معها حاجياتها الكثيرة، وأصر، سمعته يقول:

• دعاء بتنسبط قوي لما تزوريها. يا ريت ما تقطعيش بيها، دعاء مالهاش حد.

آلمتها الكلمة، «ومين سمعك؟»، قدرها أن تتعرف على مَنْ هو مثلها مقطوع إلا من بعيدين لا خير في وصالهم! «إتلم المتعوس على خايب الرجا»، قام بإدخال أغراضها في السيارة بكل تنظيم واهتمام وليس مثلها، وقف يودعها، وجدت نفسها تقول:

• أنا عاوزه أعتذر عن مرة، كنت فيها قليلة الذوق.
• ما تقوليش كده حصل خير، فيه ناس يتبلع لهم الظلطة! كفاية سهرك معانا.

وكانه ليس هو! راح يكلمها مزيداً عن دعاء ويوصيها بها، قالت:

• إنت كويس يا عبد الله؟

أنفرج جبينه وابتسم قائلاً:

• الحمد لله بخير، لكن مين عارف بكره...
• إنت راجل مؤمن.
• الإيمان مش المفروض يطمنا من القدر، في حفظ الله.

لقد أقلقها، وأشعرها بدونيتها على تفكيرها السابق نحوه، تغير عبد الله فجأة، أو هي تغيرت في نظرتها له،، بدا رجلاً مسئولاً في خضم دنياه والتي هي أسرته.

في الصباح تنزل وتركب سيارتها وتطلبه فوراً، تحكي له عما يتم في المشروع، ويحكي لها، تتوسط الحديث دائماً كلمات ممنوعات، مثلاً أخبرته أن أحمد كمال قال إنه سعيد بها.

• يالا يا حبيبي اتلطح جمب اللي قبلك! أنا آسف، بس صحيح انتي بتعملي فيهم إيه؟

تضحك وتقبل المغازلة وتغير الموضوع، بصراحة وكما قالت لداليا «المرأة تموت من دون غزل!». ذاك النهار كان أحمد كمال مستاء من أمر ما، سألها فجأة إن كان يمكنهما مناقشة بعض الأمور ليلا في مطعم ما؟ إنه عاجز حقا عن متابعة العمل ويود الرحيل، غير أن غدا لقاء مهم ويجب التجهيز له، «اعتبريه عشاء عمل»، بسرعة غير مبررة وافقت، ستقول لمعتز إنه عشاء عمل وماذا في ذلك؟ مرة واحدة لا تهم. وافق معتز مبتسما ولمح أنها قد أصبحت هامة وهي داخل عملها الحكومي، لم ترد عليه وتهيات ونزلت. ارتدت الأحمر الذي قال خالد إنها تذهل به الحجر، لو رآها أحد بصحبة أحمد كمال عبد العظيم يجب أن تكون مشرفة وفاتنة! النساء لا بد أن يظهرن فانتات.

كانت جالسة في انتظار أن ينهي مكالمته، في كل مرة تراه فيها تكتشف شيئا جديدا، تلك المرة لمحت عينين بنيتين صافيتين تماما، كيف اعتقدت أنهما سوداوين؟ هذا الشخص يضفي لوجودها وجودا أخيرا أغلق الخط ونظر ناحيتها، الوسامة الحقيقية ليست في التقاطيع، الوسامة في الروح، تنطلق فتجعل الوجه العادي شديد الجاذبية شديد السحر.

لم يطلب الرجل عشاء كما قال واكتفى بالشاي (والكورواسون) وكذلك فعلت رغم أنها لم تتناول غداء. كان لا يزل مستاء، لم يتكلم عن العمل إلا قليلا، تكلم عن الحياة وكيف هي مهمة شاقة، وأن الرجال مقيدون بشكل ما بمسئولياتهم، وأن من يتخلى ليس رجلا، تذكرت خالد، تعاطفت معه.

قال إن الحياة من المفروض أن تكون أبسط من ذلك، وهي ملك أيدينا وأماننا فلماذا تعقد النساء الأمور. استماتت في الدفاع «ليس كل النساء». في لحظة عاودتها تلك الرغبة في الشعور أن كل الرجال يجب أن يتمنوا من هي مثلها، رغبة دفينة لا تعترف بها أبدا، ثورة غير معلنة، كتلك التي حدثت عنها خالد حين تناقشا في مشهد فاطمة وعلي في فيلم (عودة الابن الضال)، إرث عظيم من جعل المرأة مغفلة! (من يحمي عائشة؟) القانون لا يحمي عائشة، (أسفة أرفض الطلاق)، (لعدم كفاية الأدلة)، يا إلهي.. حدثت ثورة غير معلنة من كل النساء في العصر اللاحق، لن نكون مغفلات كمن سبقنا من نساء! لن ننتظر الحبيب الذي لن يعود، ولن ننتظر القانون الذي لن يحمينا ليحمينا، سنحامي نحن أنفسنا، سنقود! هي ستقود اليوم! قال:

- نسيبلكم العالم يا ستي تفرحوا بيه من غيرنا، تبقوا ستات بس، تستفردوا بالأرض.
- العالم ما ينفعش يكون عالم بجنس واحد!
- على الأقل هيكون عالم جميل بالجنس الناعم، ده الشيء الوحيد اللي هيغفر للعالم بقاؤه.

- حضرتك بتتكلم بجد؟
- واحد قاعد مع ست حلوة منتظرة منه يقول إيه؟
- لا، حقيقي، حضرتك شايف إن ميزة جنسنا الجمال؟
- ما اقدرش أنكر إننا كائنات شديدة الخشونة والعنف أحيانا، بنميل للفوضى والهزل.
- أنا مش شايفة كده خالص، الرجل كائن عظيم والمرأة تستحق تكون مكملة له،
- التكامل لا يصح يكون بينتنقص من قدرها أو بيخل بمعنى احتياجهم المتساوي
- لبعض، لا الراجل ينفع يعيش لوحده ولا الست تقدر تعيش لوحدها.
- لا، الست تقدر على أي حاجة!
- آدم اتخلق قبل حوا، قدر يعيش من غيرها شوية على الأقل، هي ماكانش ينفع غير
- إنها تصحى تلاقيه بالفعل، ماكانش ينفع تعيش ولا لحظة من غيره.
- سكت قليلا وتفرس في ملامحها، ابتسمت: «أنا بقالي كتير ما اتكلمتش زي ما كنت
- بتكلم زمان».

- يعني إيه؟
- يعني أشوف نقطة النور، وانطق بالمعاني الجميلة اللي صدقتها طول حياتي، معظم
- اللي حواليا محبطين وأخدوا على الرتم الساخر من كل وأي شيء، مستسلمين
- للدوامة أو مؤمنين بالضياح.
- انتي كده في بيئة مسمومة، خدي بالك عشان ليها تأثير قوي وسيء مهما عملتي.
- عشان كده أنا محظوظة إنني بشتغل مع حضرتك، الاتزان الصحي النضيف اللي
- بيملاني من جوا، ويفكرني بالكلام الحلو اللي طول عمري مصدقاه وعاوزاه.
- قالت في نفسها، أتكلم بنصفي الحي الذي استمد الحياة مرة أخرى، وليس نصفي
- المدفون الميت، الخانع، المهزوم، الرديء! والذي لا أجد معه مبررا واضحا لهذه الحياة
- إن كانت بهذا المنظر، لكن المنظر تغير، قالت:

- الإيمان بالشيء نص تحقيقه، الإيمان أصلا علامة صحية، وأنا مؤمنة باللي إحنا
- بنعمله، بالمجهود والبذل ومش مهم النتيجة، الرضا عن النفس نتيجة.

قاطعها طالبا الحساب، بعد مضي النادل قال:

- أومال ليه بتدافعي عن الستات كإن الرجالة أندال ووحشين، أصلا أنا ضد كلمة
- رجاله، مش كل راجل راجل!
- زي ما الرجالة الوحشين أكثر في الأرض، الستات الحلوين أقل.

فجأة وضع يده على يدها وقال:

• أنا محظوظ إن الستات الحلوين حواليا.

سحبت يدها بسرعة وارتبكت! كانت موسيقى عبد الحليم تصدح، أبعدت عينيها عنه ونظرت لها تفهما، قالت بابتسامة أن الوقت مضى سريعا، قالت إن المكان جميل وشكرته جزيلًا على الدعوة، وهي تجتهد في الإبقاء على الابتسامة كأن شيئًا لم يحدث.

راقبها بسكوت، قال بعد وقت من التفكير:

• بصي يا رفاء، أنا عاوز أقلك كلام مهم -سكت برهة - أنا ما عنديش مسمى واضح لطبيعة شعوري ناحيتك، اللي أعرفه إني بفتقدك في كل لقاء أو اجتماع مهم للبلد، مليون ناس ما بتحبش مصر نص حبك ليها، ولا مهتمة بالشغل نص اهتمامك، سألت نفسي كتير المفروض أتعامل معاكي ازاي بدون ما أظلمك، ما عرفتتش! باخد راحتني لكن في خيالي، أصل التعامل مع شخصية رائعة زيك، في مجتمعنا ده، شيء فعلا صعب! شخصية بتكمل نواقصك وتزيد من محاسنك، شخصية بترتاح لمجرد إنك بتكلمها، وبينقلك الكلام معاها لعالم ثاني.

ظلت صامتة، متهيبة، مهتاجة! أعاد النادل الباقي، وقف ووقفت وشكرها وهي مخدرة تماما وصامتة.

رفضت أن يقلها ولم يصر، ببذلته تحت المعطف مد ذراعه ليوقف لها تاكسي ويظهر قصرها رغم الكعب أمامه، قبل الركوب أخفض رأسه وهمس لها: «هتوحشيني لغاية بكرة»، توقفت أنفاسها ولم ير تحديق عينيها. ركبت دون النظر نحوه، ما زالت مخدرة، تشعر بجلدها يرتعد. نزلت بعيدا وقررت المشي نحو البيت كأكبر مجنونة، تائهة في ملكوتها. مديرها أمسك يدها، مديرها غازلها، قال إنها حلوة، تجاهلت ذلك فكرر قوله مع فعل. قال إنه يفتقدها، سكتت فقال إنها «هتوحشه»، كان مأخوذا هو الآخر بها. شخصية رائعة؟ هل مضى بينهما وقت كافٍ ليقول ذلك؟ هل هي رائعة دون أن تدري؟ تأخذه لعالم آخر؟ حقا؟ تمزقت بين شعور لاذع جالد، وتخبط بين حوائط عدم الفهم وعدم التصديق، وفرحة عارمة، متى وكيف أصبحت رفاء حلمي تبدو بهذا السحر؟ غزت رأسها أغنية عبد الحليم.

قال مرة إنه يحب عبد الحليم ويحب الست، تذكرت ذلك الآن، كان ذلك سريعا جانبيا بين مهام العمل وتم نسيانه تماما، تذكرت أيضا أنه سألها عن تحب من المغنيين:

• فيروز.

• براءة، لو كنتي قلتي تامر حسني كنت فصلتك!

ضحكت وعبر ذلك سريعا كأن لم يكن، راحت تتذكر وتتذكر.

- إجتوزتي عن حب؟
- لأ.
- معقول؟ شكلك عاطفي.
- ماليش حظ.
- الاتنين مالهومش حظ ماتخافيش.

هل كانت لتفهم شيئا من سؤاله هذا؟ أو جوابه؟ سألتها عن معتز أكثر من مرة:

- هو موافق تشتغلي معايا عادي؟
- يعني إيه موافق؟ ده شغلي!
- طب بشويش، يعني في رجالة بتغير على ستاتها وما توافقش على علاقة زي دي، إيه؟ جوزك مابيعرش عليك؟

لم تجبه، ولم يكن ينتظر إجابة، كان يتحرك مسرعا نحو المصعد لينزل. تركت نفسها تستلذ بتكرار صوته في أذنها «هتوحشيني لغاية بكرة»، «هتوحشيني لغاية بكرة»، «قاعد مع ست حلوة»، «ست حلوة»...

تلك الليلة لم يكن نومها عاديا، كان متوترا، مليئا بالأحلام، قفزت في ذهنها جملة كانت قد نسيتها وفرضت نفسها على مسامعها «باخذ راحتني لكن في خيالي»، وتساءلت بعطش، كيف يتخيلها أحمد كمال عبد العظيم؟ رأت أنها في حشد كبير داخل ساحة عظيمة، وأنها تمسك ميكروفونا، وأن هناك أدوارا عليا تطل على الساحة مكتظة بالخلق، ولم تكن خائفة من الزحام أو متوترة من دورها الذي لم تعلم ماذا كان، لكنه جاء فجأة، ببذلته الكحلية الأنيقة وجبهته البيضاء، تحب الرجال بيض البشرة رغم سمرتها! توجهت نحوه تحببه وتصافحه، لكنها ما إن مدت يدها حتى شدها نحوه وقبل خدها، لم تكن تريد أن تبتعد، لكنها كانت خائفة من الناس، ضحكت لتتظاهر أنه مشهد عادي وأن شيئا غريبا لا يحدث، لكنه يستمر في جذبها نحوه وتستمر هي في الاستسلام. استيقظت هنا ترتعش، أمسكت خدها، بدا ذلك حقيقيا بشكل مرعب، رمت بظهرها على الوسادة تمرر أصابعها على ذراعها لتهدئ الرعدة، استعادت الحلم بشيء من التلذذ، كرهت ما تفعل فعبست وانقلبت للنوم على بطنها ومحاولة التفكير في أي شيء، البنات، صاحباتها، والدها! هنا تحررت من أحمد كمال وانغمست في كمد.

في اليوم التالي لم تكن رأسها فيها، ليس قلة النوم فحسب بل كل شيء، طبعا لن تخبر خالد. وصلت وهي تائهة، تتمنى رؤيته ولا تتمنى في نفس الوقت، ثم نبهتها شهيرة أن هناك مصيبة ستحدث! انتهت أخيرا تسألها ماذا هناك، بتوجس تقول

صاحبتهـا «كنتي فين امبارح بعد الشغل؟» عليها أن تكون جاهزة للإجابة لأن هناك تحقيقا يجري في المديرية، اكتشفوا أن فتاة ما أو امرأة -لا يعلمون بعد- دخلت مكتب نائب وكيل الوزارة وأخذت أوراقا مهمة، رآها الأمن واعتقدوا أنها موظفة ممن يسهرن لإنهاء أعمال بعد ساعات العمل، كانت تجري، اختفى الورق، ورق مهم! سبحان الله، رأى الساعي موظفة خارجة من المكتب من بعيد، حين اقترب كانت قد اختفت! نادى في كل المكاتب لكن أحدا لم يجب، الظاهر أنها اختبأت حتى يمشي، صباح اليوم اكتشفت الحكاية، جاري التحقيق مع كل الموظفين.

- ما تستهونيش بالموضوع، اجهزي بمكانك وبأي دليل.
- دليل؟!
- دي شئون قانونية مش هزارا!

صعدت لمكتبه ولم تجده، إن لم يأت اليوم ماذا تفعل؟ تطلبه في منزله، حاولت ولم تفلح، ليس عندها رقمه. دخلت للتحقيق، كان رسميا أكثر مما ظنت، قالت إنها كانت مدعوة على العشاء وزوجها يعرف، مع من؟ لا تود الإجابة، قال إن الأمر قد يصل للنياحة، وأن المشتبه بها حجابها (سبانش)؛ لكنها أصرت على الصمت. الأمر قد يصل للنياحة العامة لكنها لم تخف، هو قادر على إنقاذها بكل تأكيد، هكذا اختارت، لن أكذب لكني سأنتظره ليبرئني. حينما ضغطوا عليها قالت إنها تنتظر مديرها ليحضر هذا التحقيق، هذا حقها. تأخر حضوره وبالكاد تركوها تتوضأ وتصلي، حين جاء أخبروه بما قالت، جلس هناك، على كرسي كبير معد له، جلس يضحك المحققين ويخبرهم عن زيارة الرئيس، جلس يتكلم عن طريق رمسيس وكيف أصبح، لم ينظر لها حتى، لم يبد أنه يعرفها، عادوا للتحقيق وكانت تسدد نظراتها إليه، قالوا له مرة أخرى ما قالت، كان ينظر للفراغ كعادته حين يبدي الإصغاء، نظر أخيرا لها وقال:

- أديني جيت، ليه تعطلي التحقيق لحد ماجي وتركني الناس جمبك؟
- كنت... كنت في عشاء عمل.
- وبعدين؟ -نظر لهم- إيه المشكلة أنا مش فاهم؟
- مش عاوزة تقول مع مين، عشاء عمل حضرتك كنت على علم بيه؟
- وهو أنا لما المساعدة بتاعتي تكون معزومة المفروض تاخذ إذني؟
- العفو يا دكتور، هي ممتنعة تقول مع مين وإحنا لازم نعرف عشان نحقق مع اللي تواجد معاها بصفة عمل!

نظر لها ضاحكا:

- ما تقولي يا بنتي، كنتي مع مين؟ هو سر؟

سكنت مبهورة الأنفاس تنظر في عينيه، لكنه لا يعطيها فرصة، سألها كأنما ليرفع عنها الحرج:

• هو كان عمل، ولا لقاء شخصي، ولا مع صحاب من العمل ولا إيه بالضبط؟

ظلت صامتة، مبهوتة، فقدت النطق. ناطحتها صورة فاتن حمامة رغما عنها في فيلم (لن أترف). قال لهم: «بعد إذنكم يا بهوات»، وقفت كما طلب منها ودخلت الغرفة المجاورة تسمع همسهم من الباب المشترك، ثلاثتهم يتناقشون، شلل ما أصابها، سمعت اسمها، سمعت همسه، وفهمت، وسكتت، وذرفت من قلبها وكيانها كله. إنها مساعدتي وأنا أدري بها، إنها أمينة في العمل أضمن لكم ذلك، لم يكن لقاء عمل، حياتها الشخصية، زوجها لو عرف، القيل والقال، انتظرتني لأني أعرف، كانت تحكي لي، أود إخراجها، على ضمانتي، نحن في النهاية في مصر.

انفك الاجتماع، نادوها، ثلاثتهم جالسين، متحرجين «متأئين» أن الدكتور عبد العظيم يخلي مسئوليتها، «اتفضلي».

تحركت كشخص آلي، خرجت وأخيرا من غرفة المعتقل، بخطوات متكسرة، وروح مهترئة، لم تجب شهيرة عن سبب التأخير وما جرى أو أحدا من زملائها، وضعت حقيبتها على كتفها وخرجت، نزلت الدرج ولم تأخذ المصعد. ماذا تعني الروح؟ تساءلت، إذ لا يسري في هذا البدن روح الآن وها هي تمشي ما زالت، تاهت؟ ضلت؟ شردت؟ ماذا؟ ماذا...؟

معتز سعيد بعشاء العمل، يضحك على عقلها كطفلة تافهة لتفهم أنه كان على حق، يقهرها ويبقيها في الحكومة نزولا لرغبته وكأنها ليست حياتها، ثم يشجعها حين تقول فجأة «عشاء عمل»، لم يشعر بسيطرته الوهمية وهي تنزلق مع خالد، ولم يشعر بغبائه وهو يشجعها على عشاء العمل. كيف وافقت هكذا، ولماذا؟ لم يتحدثا عن العمل سوى لعشر دقائق، الأحمر؟ أي عشاء رسمي هذا الذي يرتدون فيه الأحمر، ليلتها نظرت لنفسها أمام المرأة وأدركت أنها أسرة، لقد تجاوزت في تجميل نفسها، ماذا فهم من موافقتها ومن هيأتها على أي حال؟ لماذا وافقت؟ لماذا وافقت دون تلوؤ، دون مناقشة؟ وكأنها معتادة على ذلك!

في البيت لم تكف عن البكاء، يسألها معتز، «مغص شديد»، أين أنتِ يا دعاء، مثلي مثلك، أخفي عليه وأكذب، وأحمل مصيبتني وحدي. أخذت إجازة عارضة ليومين لم تكف فيهما عن البكاء.

في أول يوم وقد امتنعت عن وضع مساحيق عرفت أنهم وصلوا للفاعلة وأحيلت للنيابة العامة، في طريقها له هيباً لها أن اثنين يتغامزان عليها، حين نظرت نحوهما كفا عن الحديث! دخلت له:

- ايه الدلع ده؟ فينك كل ده؟
- ليه ما قلتش؟
- ليه ما قلتش إيه؟ انتي عبيطة؟ -نظر نحوها- وإيه اللي انتي عاملاه في نفسك ده؟
- أنا ماحبش التكشير ع الصبح.
- كان ممكن أروح فيها!
- وأديكي ماروحتيش.
- انتظرتك تبرأني.
- أو مال أنا عملت إيه؟ ده انتي غبية بقى زي ما سمعت! انتي فاكرة كان ممكن تخرجي منها بالبساطة دي لولا شهادتي ليكي؟
- شهادة مسّت سمعتي!
- ماحدش مهتم بسمعتك ولا بأصلك وفصلك، المفروض تشكريني.
- إحنا فمكان حكومي وواحد من المحققين دول موظف معايا!
- ودي الإجابة على سؤالك، ليه ماقلتش! أقول إيه؟ كنا مع بعض بنتعشى سوا في مطعم؟؟
- عشاء عمل.
- عشا عمل بين راجل وست لوحدهم؟ ده احنا فمصر!
- إنت قتلي كده!
- وانتي ماقلتيش علطول ليه؟

سكنت حائرة، تنظر في كل اتجاه، سمعته:

- ما قلتيش لأنك ماكنتيش لابسة طقم رسمي، لبستي فستان أحمر ساك! اسمعي، أنا مش فاضي للكلام ده، قصة تافهة وكأنها لم تكن، ارجعي شغلك وانسي الحكاية دي خالص، والعشا ده، كأنه لم يكن!
- مش هاقدر.

قالتها هامسة، مما أثار غيظه، ترك الورق وقال:

- مش هاتقدري؟ طيب، أنا هطلب تبديلك قبل أول الشهر.
- تطلب تبديلي؟
- أو اطلبية انتي أحسن! تحبي إيه؟ أريحك إزاي؟

خرجت من عنده. لم يعد مشتاقا لها، أصبح متقززا منها، تحولت من «ست حلوة» لامرأة «غبية»! الثوب الأحمر إذن كان لعنتها، كل ما حدث كان دليلا واضحا أنها امرأة رخيصة توافق على الخروج مع رجل وحدهما بثوب أحمر! خالد، خالد هو السبب،

فتح بابها فأصبحت لا تمنع في دخول الزوار، لكن...، لكن أحمد كمال عبد العظيم لم يكن زائرا، أو هكذا ظنت.

قالت دعاء رافضة! «استقالة؟ انتي مجنونة؟»، لكن رفاء تجيب بانكسار أن نعم، ستتفرغ للبيت والأولاد وتواصل الكتابة عن السينما.

حاولت دعاء إن تثنيها بالعقل، فلتأخذ إجازة دون راتب، ما زال لها الحق في سنة وشهرين.

- مش عاوزه أرجع المكان ده تاني.
- دلوقت، مش عاوزه ترجعي دلوقت! لكن بكرة، ما تعرفيش بكرة فيه إيه.

قالت دعاء ذلك بإصرار. الآن تحكي لدعاء، الجد يستدعي دعاء. قالت إنها فوجئت بمشكلات أكبر منها، الفساد أقوى منها. أصرت دعاء أن ضمير «أبلة حكمت» أقوى، أين المشروع؟ والتجربة الدوائية؟ لا يجب أن تترك أزمة تهدد عواميد القصر!

- هو اتهد خلاص، الجحر أفضل، أمن.
- خالط الناس واصبر على أذاهم!

نظرت لها رفاء، تنهدت، تابعت دعاء أنها تود -وأخيرا- أن تصارحها بشيء. حكمت دعاء التي لا تحكي ولا تكشف، عبد الله عرف إن عنده نوع عجيب من أنواع السرطان، أخفى عليها في البداية، كانت لتموت! ثم نزلت رحمة الله بأن عرفوا أنها درجة أولى سيمكن التخلص منها بعدة جلسات «الغدد الليمفاوية»، نسبة العلاج عالية. مروا بليالي كالجحيم، كان كل ما تفعله هو إرضاع مهاب والصلاة. أخذت الجلسات فعلا، آخر تحليل كان سلبيا بمعنى خلو الغدد من الخلايا السرطانية، «شفتي ربك رحيم إزاي؟».

شعرت رفاء أنها ببساطة تحبها، استسلمت لها لا تدري لِمَ، وأخذت الإجازة. في داخلها رغبت بشدة في رؤية خالد، رؤية شخص سيأكد لها أنها صادقة صافية كالحليب، لكن العالم القذر لا يترك مكانا لأحد كأمثالها. لكنها لا بد ألا ترى أحدا الآن. تذكرت محمود ياسين وهو يختفي عن الأنظار في فيلم (موعد مع القدر) كي لا يكتشف أحد سرطانه!

في بيتها تغير معها الجميع، معتز رقيق خائف عليها، قال مرة «ما بتحطيش ماكياج ليه؟» وهو يشد ضحكها. كانت كلما وقفت لتشد خيط الكحل امتنعت، فقدت الرغبة

في تجميل نفسها. البنات متعاونات محبات، قالت الوسطى مرة: «ارجعي اشخطي
تاني بس بطلي عياط»، مسحت دموعها وابتسمت، قامت فعانقتهن.

(٦)

لكل الأشياء في هذه الدنيا منظوران وربما أكثر، كلها! يعيش أغلب الخلق متكئين على جانب واحد، لا ينظرون إلا من منظور واحد، تدور بهم الحياة دورات كاملة، وقد تنتهي دون أن يعلموا أو يفهموا تفسيراً لأشياء كثيرة مروا بها. يعيش آخرون بحثاً عن أجوبة للأسئلة، هرعين نحو اتجاهات عديدة، وينتقلون في أثناء ذلك -سواء بنية أو من دون- للناحية الأخرى، ويرون المنظور الثاني، فتتكشف أمور وتضيء زوايا مظلمة.

أحياناً ما يحدث هذا التكشف بصدمة أو صفة! تظل النتائج المحتملة متضادة، فقد تقضي عليك الصدمة، وقد تفيقك. يمكنك أن تنظر لهذه الصدمة دائماً أنها مصدر الألم، مصدر الإهانة، الضالة والانسحاق، الفشل! لكنك ما إن تنظر لها أنها «شر لا بد منه» حتى تتغير أمور كثيرة.

ربما لذلك بدأ شكري سرحان في إعادة تقييم الموقف، والعودة لحيه بعد فشله في علاج سميرة أحمد ابنة خالته. قرر مهادنتها وإعادة التجربة بمزيد من الصبر، كان فشله صفة تكشف!

قنديل أم هاشم

رويدا رويدا عادت رفاء لتزيئها وضحكاتها. قالت داليا: «أكبر درس في حياتك»، ويا لها من جملة سديدة! هي الوحيدة التي أخبرتها بالحكاية، وداليا التي تعلمت -لا تدري رفاء من أين- ألا تلوم أبداً، وأن تسمع أكثر مما تتكلم، كانت سببا كبيرا في استرداد صديقتها نفسها.

تلك الليلة أخبرت خالد أنها تود بشدة لقاءه، وتساءل إن كان يصح أن يلتقيا في هناجر الأوبرا بعد حفل الرقص الشعبي المقام هناك، لم تتجمل، اعتذرت لذلك، قال:

- انتي كده أحلى من أي وقت، زي الطبيعة البكر.
- إحنا اتفقنا نبطل الكلام ده.
- هو التشبيه بالطبيعة بقي غزل اليومين دول؟ المهم مزاجك، عاوزين نفضل ننافس الدول الأوروبية وشرق آسيا.
- ننافس؟! في إيه؟
- في الجمال طبعاً، مش عاوزين الحنة المصري بتاعتنا تتعكر.

ضحكت...

- بالمناسبة في مجلة كلمتني عشان اكتبها مقالات أسبوعية.
- والوا!
- على الله ننول الرضى، تموتي في الفك.

ضحكت مرة أخرى وهنأته بسعادة، قالت إنها فخورة به، وكان يلهث وراء تلك الجملة.

- عاوزه اسألك سؤال مهم، نفسي اسألوهلك من زمان،، فاكر ليلة ما خرجنا مع صحابك؟
- أنا اعتذرت لك عن اليوم ده كتير وطلبت منك تنسيه، أنا قطعت معاها أصلا.
- إنت ليه ما عملتش زيهم، ليه ما بصتليش زيهم؟

صدمه السؤال، وكان على ثباته الانفعالي يغلي تلك اللحظة، قال:

- إيش عرفك أنا ببصلك إزاي؟
- بتحترمني! من كلامنا، ما تنكرش!
- أنكر ليه؟ قتلتك قبل كده، انتي ست الكل، لكن انتي عرضي، حد يمس عرضه؟
- أنا مش عرضك!
- مش لازم تكوني مراتي أو أختي أو بنتي عشان تبقي عرضي.
- لأ لازم.
- ده في عالما المشئوم وقواعده القذرة بس، إنما أنا شايف نفسي مكلف بيكي زي بنتي اللي ماجبتهاش.
- دينيآ...
- دينيآ، راجل وصل ست ما يعرفهاش من مكة للمدينة مَشي على رجله عشان تروح للرسول وماكانش مسلم، مابصش وراه، اعتبرها عرضة، النبي اداله مفتاح الكعبة بعد الفتح بدل أعمامه.

ابتسمت، رن معتز على الهاتف، ردت وكانت قد وعدت نفسها أن تجيبه مهما حدث ما دام قد اتصل، ولم تعرف أن خالد لاحظ هذا الفعل، وقرر مثلها ألا يترك منة تطلبه أبدا دون أن يجيبها على الفور.

عادت للبيت وسألها كيف كان عرض الهناجر، وسمعها تخبره عن جلوسها مع أحد أصدقائها بعد العرض لمناقشة بعض الأمور. خلعت حجابها والكعب وجلست بجانبه على الأريكة، وضعت رأسها على كتفه، كان يتابع فيلم (صغيرة على الحب) الذي تكرهه، لكن حظها كان في المقطع الوحيد الذي تحبه والذي توحد معها تماما، الغنوة:

** عايضة أفتح عيني وأغمض ألقى سني بقى عشرين،

** علشان إيه؟

** علشان أعجب شاب يكون خمسة وتلاتين،

** لا مش ممكن!

** علشان خاطري بس ولو ليومين اتنين..

** لا يوم واحد بس بشرط تمشى معايا على طول الخط.

بدأت عينها تدمع، مسحتها في بيجامة معتز، ولم يكن منتبها فطبطب عل كتفها تلقائياً.

** يا بحر الهوى يا حبيبي أنا.. أنا كنت عايضة أجيك بقالي كام سنة..

** يقولوا إنك أوي وبتجرح بالأوي، علمني بس حاسب.. حاسب عليا م الهوى..

قامت الصغرى فقبلتها، فابتسمت لها وأجلستها على حجرها، تعرف، تريد أن تتأكد أنها لا تبكي.

** أهلا، أهلا يا أهلين، ست الحسن ونور العين،

** العصفورة دي طيارة منين، والأمورة دي كانت فين؟

** إيدوا الفرخ وإيدوا الشمع لست الحسن على الصفين،

** أهى دي الجنة اللي أنا عايزاها! أنا طول عمري باتمناها!

** الجنة دي جهنم حمرة!! كل الألوان دي ذهب قشرة!!

** اسكت انت، إيش فهمك انت،

تقدمت الكبرى فجلست على الجانب الآخر ووضعت رأسها على كتف أمها، فوضعت رفاء كفها على خد ابنتها بحنان.

** في صحتك خدي اشربي،

**** لأ مقدرش،**

**** طيب نقطة،**

**** لأ؛ مقدرش،**

**** دي بتاعتي أنا، خدي مني أنا، مفيش غيري هنا!**

**** بقى هيا الدنيا كده؟ بقى هما الناس كده؟ يا خسارة فرحتي، يا خسارة ضحكتي،
يا مين ياخدني تاني يرجعني لدنيتي.**

جاءت الابنة الثالثة وقالت: «اشمعنى أنا؟» صاح معتز: «ما تسكتوا بقى!»

ضغطت على كتفه وقالت لها أن تجلس على الأرض وتسد على ساقها، وفعلت.
هزت رأسها -متنهدة- من عصبية معتز وسكتت.

**** اليوم خُص..**

**** أنا حبيته والنبي يا حزمبل.. سيبه يقول لي حكاية البلبل!**

**** الحلوة لسه صغيرة، صغيرة....**

لم تستطع رفاء منع دموعها، في سكون تقطر من عينيها، تنزلق على خديها.

**** فتحتله باب المندره، ** إداها حته سكرة ** طارت في دنيا منورة**

**** طلع النهار والحلم طار ** رجعت تقول للشوق يا ريت ** يا ريتنا فضلنا جوه
المندره.**

بعد عام..

كان خالد جالسا مع «سميرة»، صديقة جديدة تعرف عليها من الفيس بوك. بدأت معه بنفس الطريقة، تتحاور حول ردوده على ملصقات أصدقاء مشتركين بنشاط، ثم تعلق له أنها تلاحظ اهتمامه بالسينما. لجأ خالد للعالم الافتراضي بشكل هستيري كسكن له ومهرب آمن بعيدا عن بكاء الطفل الهستيري بدوره. كان أصدقاؤه يعزونه تقريبا بدل

المباركة بعدما عرفوا أن المولود الثالث ذكر! البنت ستكون حنونة عليه وتضيف لمسة رقة للبيت على الأقل! حزنت مئة أيضا جدا، لكنها تواكبت مع الحدث، في النهاية هو آخر العنقود، وفلذة الكبد، هذا إن كان للعنقود آخر! ازدادت مسؤولياته منذ أن كانت زوجته في الشهر الثامن وحتى اللحظة. اكتشف أن رفاء كانت تمتص من بدنه طاقة سلبية سوداء ترجم أنها ضريبة الأسرة، وفي حقيقة الأمر كان يعاني من أعراض انسحاب رفاء من حياته، جنون، وارتباك، وعصبية، وانخراط غير مشروط في التعليق على كل وأي ملصق في برامج التواصل، واستعداد غريب للدخول في مناورات ومهاترات لا آخر لها بصدر مفتوح مع كل محاور! لم يعد يكتب مشاعره على حاسوبه، لا طاقة ولا وقت. وفي ليلة ما رأى ملصقا لصورتها وهي تضحك، ضحكة جميلة حقيقية، بينها وبين برنامج التواصل الزائف تضاد غريب! هذه الليلة فتح حاسوبه وقرأ كل ما كتبه عنهما قراءة أخيرة، ثم قام بمسحه كله. أهدرت طاقة الكتابة في طاقة الشجار (الفيسبوكي) حتى التقى سميرة. سميرة تلوح له بإعجابها بشخصيته، أو حشه الشعور بإعجاب أنثى. سأل نفسه كثيرا إن كانت رفاء أيضا قد عانت من أعراض انسحابها، لم يعرف شيئا عن صدمتها العنيفة. وجد في سميرة أشياء مشتركة بينهما، رغم أنها لم تكن بذات موهبته، ولم تكن من ذات البرج.

بدأت تطلب لقاءه واستجاب. دوما ما يستجيب لكنه أبدا لا يبادر، كان يعتقد أن مبادرة النساء تعزز رجولته وتثبت أنه مطلوب، لم يعلم أبدا أن الرجل الذي لا يبادر لا يسحر الأنثى، وها هي فتاة جديدة تساعده ألا يعلم.

بعد لقائه الأول مع سميرة عرف أنه لن يكون الأخير. وهو جالس معها وحتى إن تذكر رفاء لا يكون مشتاقا لها، صحح مع سميرة ما أخطأ فيه مع رفاء، لم يكن يذكر بيته على الإطلاق، لا الزوجة ولا الأولاد ولا هذا الهم، الصراحة أفضل وسيلة، نزع الأقنعة هو الحل الشافي الآن، نحن نعرف بعضنا لأننا نحتاج لبعضنا وليس شرطا أن تكون نوايانا بريئة! سميرة تملك ميزة جبارة أخرى، أنها فتاة عانس، فليس عليه أن يسلمخ نفسه كل ليلة لاشتياقه امرأة على ذمة رجل غيره، حتى خشيته التي تداهم كل متزوج تقع في طريقه عانس أو عزباء؛ كي لا تطلب منه الزواج مرة، حتى تلك الخشية زالت تماما، فقد أخبرته وبصراحة تحسد عليها أن كل الرجال الذين وقعوا في حياتها كانوا متزوجين، وقد تعلمت درسا مشتركا من كل هؤلاء، أن أحدا لن يترك بيته أو يضحى بالزواج منها! أخبرته أنه لذلك يعجبها، واضح لا يمثل الحب ويسعى للإيقاع الذي سيعقبه التنصل لا محالة! جرأتها كانت محببة إليه، بعكس رفاء التي كانت تحسن نفسها بغلالة غير قابلة للثقب مهما تجاوزت معه!

تجاوز مرة مع رفاء عن السبب المحتمل في ألا تطلب الزوجة زوجها رغم أنه يسألها وهي تؤكد أنه يسعدها.. استعرضت رفاء معه معلومات ثمينة لكنه رفض أن يصدق أنها مشكلته، أخبرته عن الزوجة المصرية التي ربيت على عدم جرح رجلها ولا

مصارحته بما قد يفسد حياتهما للأبد، ستكذب وتقول إنه يسعدها على أن تجرح رجولته! أما سميرة، فسألته إن كان قد جرب استعمال الأدوات الجنسية من قبل؟! «كده على طول»، انخراطه معها في أحاديث جريئة لم ينطقها أبداً مع امرأة من قبل أسعده.

تلك الليلة كان لقاء في أحد مقاهي وسط البلد. طبعاً تختلف سميرة اختلافاً كلياً فيما يخص مظهرها، تحب ترك شعرها غير الناعم مسترسلاً على الدوام، وتعشق الملابس التي تكشف ذراعيها وساقها، لكنها مثلاً لا تترك الأحذية الجلدية الرخيصة، بعكس رفاء لم يكن يحب النظر لقدمها!

كانت اليوم باكية؛ لأن شخصاً ما كان في ماضيها تحدث عنها بما يعيبها لبعض أصدقائه، طبعاً خالد هو الصدر الحنون، يستمع ويتفاعل ويجيب إجابات شافية، صادقة، من نوع أن من لم يحفظك لا يستحق تذكرك له أصلاً. كانت قد حكّت له في بداية تعارفهما طويلاً عن هذا الشخص دون ذكر اسمه، قصة حب ملتعبة نهايتها أنه «لا يستحقها» ويجب أن يعود لزوجته وأولاده، ثم تمثيل ببقاء الصداقة، قال:

- هو ما يستاهل حتى صداقتك.
- مافيش حاجة اسمها صداقة بين راجل وست!
- لا في.
- شاورلي على راجل عرض صداقة على ست وما كنش بيفكر فيها جوا شقته؟
- تفكيره فيها مش هو دليل الصداقة.
- وإيه هو دليل الصداقة؟
- الصداقة بمفهومها الأصلي، تلاقيه وقت ما تحتاجه من غير ما ينتظر منها مقابل.
- مافيش راجل ما بينتظرش مقابل..
- فيه!
- إنت طيب قوي يا خالد.

قالت ذلك مبتسمة ابتسامة لم تعجبه، تدل على سذاجته، وسحبت أنفاس الشيشة.

- أنا بكلمك على واقع عشته.
- ويا ترى هي كانت تستحق الصداقة دي؟

سكت، أوجعه السؤال، سمعها تقول إن الغرور الذكوري يزين للرجال أنهم فقط من يمكن أن يستغلوا النساء، رغم أن العكس قابل للحدوث. سأل نفسه مرة في خضم غضبه وذروة انفعاله داخل أعراض الانسحاب إن كانت رفاء قد استغلته، لم تتقبل أي ذرة في بدنه هذا الحكم، لكنه لم يجزم بالنفي!

في أثناء حثه لسميرة على قطع علاقتها نهائيا بهذا المدعو «صديق» وهو ليس صديقا، عاب فيه وفي رجولته؛ لأن الخسيس فقط هو من يغرر بفتاة ويسمح لنفسه بعيش قصة حب معها دون أن يكون على نية للارتباط بها، وإن لم يعدها بصراحة! قصته مع رفاء مختلفة، لم يغرر بها ولم يكن مسار علاقتها في اتجاه تنفيذ الوعود، بل كان واضحا لكليهما أن قصتهما إنما لتخفف حمل الحياة التي فُرِضت على الجميع! في أثناء مغالاته في سبّ الرجل قالت له أن يكف لأنه صديقه! وهي شخصا عرفت خالد وصفحته من خلال هذا الصديق! سكت خالد مبهوتا، سألتها، فقالت إن الدلائل كلها واضحة لكنه لم يفطن، بعدما قالت اسمه احمرت أذناه.

- أنا طلعت غبي!
- إنت طيب.
- مش طيبة ده غباء، وما فيش مبرر للغباء.
- بالعكس، أحلى حاجة فيك إنك مش زكي، على طبيعتك.

كانت تقول ذلك وهي تنفث الدخان بكل أريحية، ولم تدرك كمّ الغضب الهائل الذي اجتاحه، قالت مستعطفة:

- ممكن توصلني البيت؟ بجد مش قادرة أكون لوحدي، كذا مرة توعدني إنك هتشوف شقتي وتقولني رأيك في اختياراتاتي. كمان الدنيا تلج!
- كانت تبتسم بغنج، دلال كان بحاجة إليه لينسى مسألة «مش زكي»، قال:- ممكن.

كانت جالسة في كامل هندامها الرسمي تنتظر، قصدت أن تكون ساحرة، بشكل رسمي، سحر المظهر مع سحر المعرفة والعزيمة. ظهرت رسالة إخبارية في هاتفها من القناة التي اشتركت فيها، وقرأت الخبر بسرعة: اتفاقيات جسر «الملك سلمان» ليربط بين مصر والمملكة، وإرجاع جزيرتي تيران وصنافير للسعودية في زيارة وصفت بالتاريخية...، أغلقت الهاتف وقررت أن تلغي الاشتراك قريبا، أخذت نفسا عميقا وتذكرت أحداثا حلوة كما أوصلتها داليا، أن تتخيل مكتبها في هذا المكان مثلا، ستترك المديرية أخيرا.

في أول مقابلة عمل كانت الدنيا مختلفة، شركة عبارة عن نصف دور أرضي داخل مصنع، قالت السكرتيرة الجالسة أمامها: «اتفضلي». دخلت الغرفة ووجدت اثنين جالسين في انتظارها أحدهما امرأة والآخر رجل، سألتها عن مشوارها العملي، كانت قد حفظت إجابة السؤال النموذجية الحقيقية لهذا السؤال، بداية من تجربتها للعمل في الصيدليات وحصولها على خبرة دوائية مميزة، مرورا بالوحدة الصحية التي

تعلمت فيها معنى الصبر واحتياجات المستهلك وفهمه للدواء كطريقة للعلاج، انتهاءً بالمشوار الحكومي في مديرية الجيزة والذي تعلمت فيه أصول التفتيش، ورصد النقص، والخروج بتعريف واضح لمناطق وأسباب التقصير والإجراءات اللازمة، ما أهلها لإدارة فريق عمل في مشروع التجربة الدوائية وتحقيق معدلات إنجاز عالية تبشر بالنجاح.

لماذا لم تتم المشروع إذن؟ تدرت أيضا على الرد على هذا السؤال: علمها مديروها وأساتذتها الكثير، لكن النظم الحكومية بطبيعة الحال توقر الأكبر سنا، وتلتزم بمسار محدد للترقيات لا يمكن اختراقه. حين جاء الأمر أن تتوقف توقفت، لكنها الآن مستعدة لتطبيق كل ما تعلمته من خبرات دوائية وإدارية وعملية في بيئة مختلفة، وقطاع خاص تحديدا. سُئلت ما الذي يدعوها للعمل في شركة مستحضرات تجميل؟ الحقيقة...، قالت الحقيقة، أنها تتوق للعمل في مجال يحترم خبرتها ودراساتها كصيدلية، تستثمر فيه ما تعلمته، تتعلم فيه الذي لا تعرفه بعد لأنها تقدر التعلم وتتسم بسرعة الفهم والتطبيق، وطبعاً لأن بيئة العمل كما سمعت من كثيرات، رائحتها زكية! قالت ذلك بضحكة مبهجة فضحكا بدورهما وشكراها على وقتها.

في اليوم الأول بعد هذا اللقاء كانت متحمسة تشعر أنها ستقبل. بعد الأزمة الأخيرة قال معتز أن جنى كبرت؛ والبيت مستعد لتجربة عملها في قطاع خاص. في اليوم الرابع بعد اللقاء بدأت تتزعزع، في الأسبوع التالي عادت لدوامه البحث عن عمل بمزيد من الكآبة، قال معتز:

- ما تسببك من الهم ده وتنفذي خطتي، خطتك ربنا مش راضي عنها.

كان يضحك، لذلك استجابت له سائلة عما يقصده، قال:

- نجيب ولد يبقى أخو البنات وكفاية عليك كده.

تهتدت ونظرت للسقف. أرسلت لخالد وجها محتقنا، أرسل لها يطمئن، لم تظهر من أسبوعين أو يزيد، وحين تظهر تكون محتقنة؟ ماذا هناك؟ سألته عن أحوال الوليد فحثها على التخلي عن المقدمات وقول ما يزعجها، كتبت له سريعا ما كان، كتب:

- ربنا شايلك الشغلانة اللي هاتتقدي فيها حق قدرك.

هاتف داء وداليا وأخبرتهما أن يلتقوا الليلة لنصف ساعة، حكتهما عما يخنفهما، أخذت جرعة تشجيعية لطيفة. في الصباح التالي تلقت اتصالا هاتفيا من رقم غريب، وطلب مقابلة للعمل، طارت من السعادة، وقررت ألا تخبر أحدا حتى قبولها في وظيفة، لكن طلب اللقاء يعني أن الحلم ليس مستحيلا.

هذه المرة قابلتها فتاة أصغر منها، سألتها كإنسان آلي عن سيرتها الذاتية وسبب عملها الحكومي وما تتوقعه من راتب ثم شكرتها. اعتادت على هذه الوتيرة بعد فترة، حتى جاءها اتصال لعمل مقابلة شخصية ثانية، ومقابلة ثانية تعني أنها عبرت من المرحلة الأولى، وأن فرصة قبولها أكبر، وأنها «تصلح»، وهذا ما تود بشدة أن تشعر به. وها هي جالسة تنتظر.

بعد حادثة عبد العظيم ظلت مقتنعة أن أفضل وسيلة هي الانطواء، المنذرة التي ما كان يجب أن تفكر في الخروج منها واقتحام هذا العالم، ثم كانت تشاهد فيلم (الصرخة)، وتنظر للشباب الأصم الأبكم الذي لم يستسلم لعجزه، لم يقبل بالهزيمة رغم وجود كل بواعت ومبررات الهزيمة، أعادت التفكير فيه مرارا، قامت ذات صباح مدركة أنها لا يمكن أن تسمح لشخص أن يحطمها، يجب ألا تنهزم، كما قال خالد «وَهَبَّ الجهد مساويا للتكليف». صحت فجأة والنية في قلبها كالنارا! لن يمنعها معتز ولن يمنعها الجن الأزرق من البحث عن وظيفة محترمة في شركة محترمة.

وصلت لمقر الشركة وكان رائقا نظيفا من الرخام الأبيض، كان المدير بنفسه هو من سيقابلها، دخلت المكتب وإذا برجل أربعيني أنيق، وسيم الطلعة ينتظرها، لفت نظرها خصره، مستوٍ بشكل مرهق.

بدت أسئلته مختلفة بشكل ما، كلها سلوكية، وبعضها افتراضي عن ماذا ستفعل لو...، لم يعلق على عملها الحكومي الطويل ولم يحاول استنفادها من نقاط الضعف في سيرتها الذاتية، نظر مليا في عينيها وسأل عن أول شيء ستفكر في عمله إن هي جاءت للعمل هنا؟

- أول حاجة، أفهم سياسة الشركة وشغلكم كويس، وأفهم انتو طالبين مني إيه بالضبط.

شرح لها الرجل، هم يعملون في توزيع الأدوية، مطلوب أن يقوموا بتعيين نائب لمدير فرع العجوزة، النائب سيكون من مسؤولياته متابعة المخزن والصادر والوارد، متابعة مندوبي التوصيل ومراقبة تنفيذ خطة سيرهم، وطبعا تلقي الشكاوى من أي نوع إن ظهرت. أخبرته رفاء بثقة أنها تملك مهارة إدارية، وطبعا اشتغلت على المخازن فترة طويلة، هي مستعدة.

- احتمال تحتاجي كورس تخطيط، ده طبعا لو نجحتي في مهامك الأولية.
- حضرتك أنا انتسبت لمعهد السينما واتخرجت، الكورسات شيء ممتع بالنسبة لي.
- مش عاوزه تتعرفي على مديرك المباشر؟
- مش هاتفرق، معظم الصيادلة ستات وأنا متوقعة أي حاجة.
- لا احنا هنا في البنزس، مش في الهيئة الصحية.

أزعجها هذا التعليق لكنها سكتت. قال إنه بما أنها اعتادت على الصيادلة النساء فعليها أن تعرف أنه هو سيكون مديرها المباشر وكل تقاريرها وتعاملاتها ستكون معه في المقام الأول؛ فهو مدير الفرع.

- فمشروع التجربة الدوائية كان مديري راجل.

قالت ذلك بثقة نافذة رغم أن قرصة سريعة دارت في صدرها لدى تذكره وتذكر كل ما حدث. عام... عام كامل وهي تتعافى، تسمع بوضوح كلمة «غبية» التي نعتها بها، تحاول أن تتذكر إن كانت غبية حقا طوال عمرها دون أن تدري، تتردد في مخها جملة «مش فاضي للكلام ده»، «هاطلب نقلك من بكرة»، وطبعاً «أحمر ساك، أحمر ساك، أحمر ساك...».

استفاقت عليه وهو يبتسم وفي انتظار إجابة، فاعتذرت منه وطلبت أن يكرر السؤال، وكان عن راتبها. وجدت أنها شذبت أظافرها فجأة وتكلمت بعكس ما تعودت عليه من أن الراتب هو آخر ما يهتمها لكن الأهمية العظمى أن تحظى بفرصة عمل موفقة و...، وقالت بحاجب مرفوع أنه صحيح كونها معتادة على المرتب الحكومي البخس، لكنها ستؤدي مهامها أكبر وستبذل طاقة أعلى وبالتأكيد لكل ذلك مقابل، هي تود الاستقلال المادي في النهاية. ما فاجأها أنه ابتسم، حين فعل، ارتجت الصورة.

- أنا سعيد ومتحمس للشغل معاكي، فعلا عندك طاقة واضحة ومالية المكان، هبعثلك الـ job Offer في خلال يومين بالكثير.
- ده نهائي؟ مش هاترجع حضرتك لحد قبل ما تبلغني؟
- أنا الحكومة!

قالها -فاكها- فضحكت تتساءل إن كان يحب السينما؟ فهو تعليق أحمد السقا الشهير في فيلم (الجزيرة)، حين ضحكت ابتهج، وتذكرت أحمد كمال عفوا، فتبدلت ملامحها. لم يعط لها فرصة، سأل متى يمكنها أن تبدأ، قالت بصيغة سؤال: «أسبوع؟»، وقف فجأة ماداً يده للمصافحة فوقف بسرعة ومدت يدها، Deal!.

نزلت من عنده منتشية، لن تبلغ معتز، ستحظى ببعض الوقت لنفسها بفرحة غير معكرة، ولا دينا ودعاء، ستحفظ السر عنهما حتى يصل لها عرض واضح رسمي.

هذا المساء تذكرت كلمات أحمد كمال حين طلب منها ألا تلومه وقد جلس مع «ست حلوة»، وتذكرت خالد وهو يخبرها أن ترتدي «الأحمر الملعلط» كي تنال ما تريد، قامت بسرعة فغلقت الثوب الأحمر وأرسلت برسالة لنادية الشغالة تخبرها أن ثوبا أحمر جميل في انتظار ابنتها حين تأتي المرة القادمة، أجابتها المرأة بدعاء للصحة

1. الغلاف
2. النصف الحي
3. (١)
4. (٢)
5. (٣)
6. (٤)
7. (٥)
8. (٦)